تعميق الفهم في الفكر الاستراتيجي

مدخل إلى التغيير الثقافي

د. محمد بريش



تعميق الفهم في الفكر الاستراتيجي: مدخل إلى التغيير الثقافي

محمد بريش*

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

حاجة العالم الإسلامي إلى استراتيجية للثقافة

أ ـ حاجتنا إلى مفهوم معاصر للثقافة: لعل تمعننا في مصطلحيْ الاستراتيجية والثقافة، كل منهما على حدة يوحي إلى الدارس اللبيب بالعلاقة القوية بين المفهومين، حتى ليصبح الفن الاستراتيجي وما يتفرع عنه من العلوم لوناً من ألوان الثقافة، وشكلاً من أشكال الممارسة العلمية للثقافة. فَثَقِف يَثْقَف فَطِنَ وحذق وثقِف العلمَ أسرع أخذه، والفطنة والحذق مع سرعة البديهة والفهم، وسرعة الاستنباط والتحليل، كلها عوامل أساسية وضرورية لكل استراتيجية أياً كان موضوعها.

ونحن ما زلنا أمام تطور الأوضاع وتصدع عرى ما كسبناه خلال كفاحنا المتأخر وغير التام ضد القوى الاستعمارية الغازية نسينا أو أُنسينا ـ لسذاجة مركبة عمت الأذهان ـ أن الحرب ضد وجودنا بوصفنا أمة إسلامية ما زالت قائمة بمختلف الأسلحة، السياسية والفكرية والثقافية والتربوية والعقائدية. وما زلنا نفسر تخلفنا على الشكل نفسه الذي ذكره **مالك بن نبي** منذ بداية الستينيات. يقول هذا المفكر في كتابه **مشكلة الأفكار**: "وهذه الصعوبات قد فسرت بطريقتين مختلفتين: بالنسبة لأنصار الموضوعة الاستعمارية، فإن عامل التأخر عن الإقلاع هو الإسلام، وبالنسبة

---

* خبير الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية، وباحث في قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ومستقبل العالم الإسلامي.

لأنصار الموضوعة القومية فإن الاستعمار هو المسؤول عن ذلك، وفي كلا التفسيرين عيب أساسي لغموض في أساسه... الأولون يتناسون الواقع التاريخي بتجاهلهم الدور الذي قام به الإسلام في إحدى أعظم الحضارات الإنسانية، والآخرون يجهلون أو يتجاهلون أن الدول الإسلامية الأكثر تخلفاً هي بالتحديد الدول التي لم تواجه تحدي المستعمر".[١]

وقد لا نتفق مع **مالك بن نبي** لأنه كتب ما كتب في وقته انطلاقاً من تيارات زمانه وأوضاع العالم الذي كان يعيش فيه، لكن النتيجة التي انتهى إليها من ذلك التحليل ما تزال صالحة قائمة تشهد على عدم العمل وتراكم المسؤولية قبل عصر **ابن نبي** وبعده إلى اليوم. ويقول هذا المفكر الفذ:

"والمجتمع الإسلامي يعاني في الوقت الحاضر بصورة خاصة من هذه الاتجاهات لأن (نهضته) لم يخطط لها، ولم يفكر بها بطريقة تأخذ باعتبارها عوامل التبديد والتعويق. فمثقفو المجتمع الإسلامي لم يُنشِئوا في ثقافتهم جهازاً للتحليل والنقد إلاّ ما كان ذا اتجاه تمجيدي يهدف إلى إعلاء قيمة الإسلام. أما القادة السياسيون فإنهم لم يؤمنوا بضرورة إنشاء مثل هذا الجهاز ليراقبوا مسيرة العمل في بلادهم. هكذا أضحى عمله التاريخي منذ قرن خارج مقاييس الفاعلية، وأضحى تنفيذه في ظل فوضى الأفكار".[٢]

ونحن لا نمجد ما خطه **مالك بن نبي**، ولكن نأسف لأمة يوجه لها الخطاب منذ سنوات فلا تستجيب، ويحلل العيب فيها وأسبابه فلا تُقْدِم على العمل. بل كثيراً ما نراها تصادر حكومة وشعباً ـ كل منهما بأسلوبه ـ أصحاب النقد والنصيحة الحاملين هم الأمة، ناعتة إياهم بالمروق عن الشرعيّة والخروج على القانون. ونعلم أنه لا نفع للأسف والتأسي، ولكن ليعلم همنا بالأساس أن من نخوض في ركام الأفكار بحثاً في حركيتها وفاعليتها (ديناميكيتها)، عسى أن نفهم عللها وبواعثها وشكل تطورها،

---

١ مالك بن نبي: **مشكلة الأفكار** ترجمة، د.بسام بركة ود.أحمد شعبو. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٨، ص٧٧-٧٨.

٢ المرجع نفسه، ص٧٨-٧٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

رغبة في المشاركة المأجورة عند الله وعند الناس في التنقيب عن علاج أزماتها وتحديد زمنه ومقاديره.

ذلك أننا حين نجد **مالك بن نبي** يقول: "إن للعالم الثقافي بنية ديناميكية تتوافق مظاهرها المتتالية مع علاقات متغيرة بين العناصر الثلاثة للحركية: الأشياء، والأشخاص، والأفكار"،[٣] نصاب بالخيبة لكوننا قضينا زمناً كان علينا فيه أن نعي بحركية الأفكار والأشياء و"ديناميكيتها"، وبقينا متخلفين حتى على مستوى التنظير لتحليل ديناميكية وضعنا التعيس، علماً بأن **مالك بن نبي** لم يكن أول ولا آخر من نادى بضرورة الاهتمام بحركية الأفكار وجدلية الثقافات.

والثقافة اليوم في عالمنا الإسلامي تحتاج إلى تعريف معاصر يبرز حركيتها وسعة مفهومها، فالعلم أضحى جزءً من الثقافة، وهذه حقيقة تأخرت أوربا في فهمها حتى زاحمتها اليابان، ونافستها في السياسة الاقتصادية والإنتاج والابتكار التكنولوجي، وهي اليوم تخشى زعامتها السياسية والعسكرية أكثر من أي وقت مضى. أما العالم المتخلف ـ والأمة الإسلامية جزء مهم من رقعته، وطرف كبير في منظومته ـ فهو بعيد تمام البعد عن الوعي باحتواء الثقافة للعلم، حتى في أدق بحوثه التقنية والتكنولوجيا.

فما زالت العديد من سواعد العالم الإسلامي وعقوله وأمواله تخدم الثقافة الغربية والمنظومة الفكرية الغربية المغذية لها، وهي غير واعية بذلك، بل نرى أسلمها طريقة يدعي أنه لا يستقيم علماً أن نقول: إن المبتكرات التكنولوجية، والكشوفات العلمية هي جزء من الثقافة، وإن كان لا ينكر أن لها أثراً في الثقافة والفكر. بل يصعب عليه، لضعف الوعي بدوافع الابتكار ومنطلقات الإبداع، التسليم بذلك. إلا أنه يرغم على القبول حين تأتي الفكرة حول ذلك على لسان المبدعين والمبتكرين الغربيين. ولا عجب أن نجده غداً مدافعاً عنها، دون سابق اقتناع بها، بمجرد أن نطق بها المبجلون.

وإذا كان لنا أن نوجز مفهوم الثقافة الإسلامية فهي الإسلام حين يصبح حياة، ويتحقق ذلك في أمور شتى أهمها:

---

٣ المرجع نفسه، ص٨٥. ولقد ذكر **مالك بن نبي** ذلك في بداية كلامه في الفصل التاسع عن جدلية الفكرة والشيء. ثم خصص الفصل الثاني عشر كله للكلام عن الأفكار وديناميكية المجتمع.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

- أن يكون كتاب الوحـي قرآنًـا وسنة، وكتـاب الكـون همـا مصـدرا المعرفـة في المجتمع الإسلامي.
- أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام قدوة لكل مسلم.
- أن يكون العلم والعدل مقصدين أساسيين من تلك المعرفة.
- أن يسود في المجتمع مناخ من الحرية على نسيج متماسك من النقد والحوار البناء.
- أن يتوافر في المجتمع سراة من العلماء والمفكرين والساسة والمبدعين، مخلصين للـه، داعين لدينه، مجاهدين في سبيل إعلاء كلمتـه، مشـكلين نـواة الانطـلاق صـوب أهداف الإسلام النبيلة، وإرساء نظمه القويمة.
- أن تتأكد رغبة المجتمع في إيجاد المنظومة الفكرية والتربوية والثقافية اللازمة لتحقيق مناخ العطاء الفكـري والعلمـي، وحريـة الفـرد والمجتمـع، والنقـد البنـاء الهـادف، وخدمة العلم والعدل.

ب ـ التنافس الحضاري المعاصر صراع بين الثقافـات: في سـنة ١٩٧٩، اهـتزت أوروبا خاصة، والغرب عامة، لتحدٍ ياباني شديد اللهجة، عنيف المجادلة، قاسي الحكم على لسان رجل من كبار الفاعلين في الاقتصـاد اليابـاني، وهـو الخبـير **كونـو سـوكي ماتسوشيتا**، رئيس إدارة الكهرباء الصناعية اليابانية، وكان مما جاء في هـذا التحـدي، الحكم الآتي:

"سننجح لا محالة، والغرب الصناعي حتماً مآله الإخفاق، ذلك لأنه يحمل في ذاتـه عناصر إخفاقه. لقـد ظلـت مؤسسـاتكم (يـا أهـل الغـرب) تيلوريـة الفكـر (نسبة إلى مذهب تيلور الاقتصادي المعروف)، والخطر المحدق بكم، أن عقولكم تيلورية كذلك! إنكم تتخيلون أن حسن العمل يتجلى في الفصل بين ما ينبغي أن يقوم به أولئك الذين يفكرون، وأولئك الذيـن ينفـذون. فالتدبـير عندكـم فـن تمريـر فكـرِ القـادة إلى أيـدي العاملين والمنفذين. أما نحن فقد نبذنا المذهب التيلوري، وأحطنا علماً بالتحديـات الـتي تجابهنا في المستقبل، وحرصنا على تنمية ذكاء كل العاملين، واسـتثمرنا أموالنـا لتعميـم هذا الذكاء، ولجعل الحوار المتبادل مستمراً بـين كـل العنـاصر الفاعلـة، والعمـل أسـرة واحدة. إن الإدارة عندنا هي كيفية تجنيد ذكاء الكل، لصالح مشروع يخدم الكل".[٤]

---

٤ انظر: "تقريـر حـول الوضـع التقـني" *Rapport sur L'Etat de la Technique*، صـادر عـن مركـز الاستشـراف والتقديـر Centre de Prospective et d'Evaluation ووزارة البحـث العلمـي والتكنولوجي، ووزارة إعادة الانتشار الصناعي والتجارة الخارجية بفرنسا، وقد نشر عـدد خـاص من

ونحن لا نسوق هذا التحدي للإشادة باليابان، فالنموذج التنموي الياباني غير قابل للنقل، ولكن لنضرب المثل على ما تقوم به الدول الراغبة في التمكن والمحافظة على السبق الحضاري، والحريصة على مواكبة التقدم والتنافس ابتكاراً وإبداعاً في مختلف مجالات الحياة. فأوربا لم تستسلم بتاتاً لهذا التحدي، بل واجهته بما يلزم من إعداد واستشراف، وكانت النتيجة التي توصل إليها الخبراء أن الحل يكمن في الثقافة، ذلك النسيج الأساسي والضروري للبحث العلمي والتنمية بوصفهما العجلتين الأماميتين والمحركتين والموجهتين للتقدم الحضاري.

فالنافس بين الدول في العصر الحديث صراع مكشوف بين الثقافات، سواء كان تنافسا اقتصاديا أم علميا أم تكنولوجيا. فلا عجب أن نجد الدول الصناعية المعاصرة الراغبة في بيع منتجاتها وتوسيع سوقها، تسعى إلى توسيع رقعة لغتها وبسط مزيد من الفسحة لثقافتها. ولهذا لما أدركت أوربا وظيفة الثقافة في البنيان الحضاري موازاة مع التعليم، عكفت على إنجاز برامج في ميدان العلم والتكنولوجيا تنهل وتصب في المجال الثقافي في آن واحد، مثل برنامج كوست (COST) وبرنامج أوريكا، (EUREKA)، وبرامج المختبرات (REL) ، وبرامج المؤسسة الأوربية للعلم (ESF)، وبرنامج (FAST) الخاص باستشراف مستقبل العلوم والتكنولوجيا.[٥]

جـ - العلم جزء من الثقافة: وصراع الثقافات داخل سوق المنافسة الدولية وما يحركها من برامج علمية وتكنولوجية وتربوية في جميع أنحاء العالم الصناعي فجر السؤال الآتي: "هل العلم جزء من الثقافة؟"[٦]، فانطلقت بفضله حمى استشراف مستقبل العلوم والتكنولوجيا، ومستقبل الثقافة والقطاعات الثقافية، لأن مستقبل الثقافة لا يستقيم دون دراسة العلوم وتطبيقاتها التكنولوجية. واشتدت أصوات العلماء،

مجلة **العلوم والتقنيات** *Sciences et Technique* التي تصدرها جمعية المهندسين والتقنيين بفرنسا في أواخر ١٩٨٥، ص١١.

٥ ألف العديد من الكتب حول هذه البرامج، والمدخل لها هو الكتاب الآتي على سبيل المثال:
Jacques Molinari: *Initiation à la Coopération Européenne en Recherche et Developpement Technologique*, Editech, 1990.

٦ طرح هذا السؤال بحدة في ندوة "العلم والثقافة في القرن الحادي والعشرين: برنامج البقاء" والمنظمة من طرف اليونسكو بفانكوفر (كندا) ما بين ١٠ و١٥ سبتمبر ١٩٨٩، كما طرح السؤال نفسه في ندوة " اليونسكو بباريس ما بين ١٤ و ١٦ يونيو ١٩٨٩ حول "العلم والتكنولوجية في خدمة المستقبل". وقد نشرت ملخصاتها في مجلة *Impact* (عدد ١٥٥، ١٩٨٩) التي تصدرها اليونسكو.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

خاصة في العقد الأخير، لزجر الراغبين في فصل العلم عن الثقافة، والتنديد بكل بحث أو مشروع لا ينطلق من اعتبار العلم جزءً فاعلاً في الثقافة، ولا يؤمن بانصهار بعضهما ببعض.

من هؤلاء الأعلام البارزين **إيليا بريغوجين** صاحب جائزة نوبل والعديد من البحوث والدراسات العلمية، فمما جاء في كتابه **التحالف الجديد**[٧] قوله: "أضحى من الملح على العلم أن يعد نفسه جزء لا يتجزأ من الثقافة التي تطور بين أحضانها"، وقوله كذلك: "إن العلم سينفتح على العالمية عندما ينتهي من نكران اهتمامات المجتمع، ويعدل عن وصف نفسه غريباً عنها، فيصبح بالتالي قادراً على محاورة الناس من جميع الثقافات واحترام تساؤلاتهم".

ومنهم كذلك **روني ماهو** المدير العام السابق لليونسكو، الذي يحكي عنه الدكتور **مهدي المنجرة** الذي صاحبه مدة طويلة في هذا المنصب مديراً مساعداً، أنه لم يُفهم خطابُه بصفته مديراً عاماً من طرف الإدارة البيروقراطية لمنظمة الأمم المتحدة. ولو فُهِمَ، لتمكنا من ربح سنوات من الجهد، ومئات الملايين من الدولارات، بتخلينا بسهولة عن الوهم الذي يدعي إمكانية نقل التكنولوجية. لقد كان **ماهو** أول من استعمل مفهوم التنمية الذاتية في سياق اجتماعي ثقافي، خصوصاً حينما يتكلم عن العلم[٨]. فهذا الخبير يحدد التنمية تحديداً دقيقاً في قوله: "التنمية هي العلم حين يصبح ثقافة".

ومنهم الدكتور **مهدي المنجرة** نفسه، في قوله: "العلم لا يمكن نقله، لأنه نتاج نسق ثقافي، فالقيم الثقافية هي التي تحدد الفكر العلمي والإبداع والابتكار. فلا يمكنك شراء ولا نقل المخرجات، دون أن تتوافر لديك المدخلات الثقافية التي تمكن من الفهم والهضم والإضافة في القيم الذاتية للمنقولات، وإلا فلن تشتري إلا لعباً".[٩]

فتلاحم العلم والثقافة سنة من سنن الكون الإلهية، وتأثير كل منهما في حاضر الآخر ومستقبله عامل أساسي في تطور الحياة البشرية، وأي استشراف لمستقبل

---

٧ المهدي المنجرة: انصهار العلم والثقافة: مفتاح القرن الحادي والعشرين بمجلة **المستقبل العربي**، عدد ١٣٦، يونيو ١٩٩٠.

٨ المرجع نفسه.

٩ المرجع نفسه.

الثقافة لا يمكنه أن يتم بشكل موضوعي وعملي إلا إذا كان يوازيه ويصاحبه استشراف لمستقبل العلم والتقانة، التي هي إنزال للعلم على الواقع الصناعي والاقتصادي في المجتمع.

الفكر الاستراتيجي عطاء ثقافي إنساني

كل منا يمارس يوميا نوعا من الأداء الاستراتيجي، وكل مخلوق له بديهة أو بعض تجربة وممارسة، وهو نوع من التصرف الاستراتيجي الذي يمليه عليه صراع الحياة ومواجهة شدائدها وعدوانية عديد من المخلوقات بها، ولا جرم أن نجد النسيج الثقافي لمجتمع ما محاكا ومصاغا لتنفجر منه طاقات فكرية وفلسفية ومعرفية (إيستمولوجية) تغذي الفكر الاستراتيجي في كل مجتمع إنساني، الذي يتجاذب أطرافه المصيغة والمغذية كل من الأنا والآخر. فحماية الأنا، تستدعي تشريح الآخر من خلال دراسة إمكانية تجانسه مع رغبات الأنا وتحليل الاحتمالات العدوانية لها.

ولقد انتقل الفكر الاستراتيجي ليحتل مرتبة مهمة في العصر الحالي حين تشكلت المؤسسات والمقاولات في شكل مجتمعات متنافسة، وأضحى التنافس في السوق الدولية حربا ضروسا، باردة حينا وساخنة أحيانا، مستندة إلى الجانب العسكري والإخباري والدبلوماسي، مع ما يوازي ذلك من النفوذ والتحيز لاستكمال جوانب أخرى من الحركة الاستراتيجية، مؤججة ساحة الصراع، ومهيمنة بدلائلها ومفاهيمها على أدبيات المجتمع، قصدُها كسب المواجهة على ساحة الفكر والثقافة من خلال السبق بشرح المواقف، وادعاء التخصص والإتقان لقراءة الحركات، وتعميم تفسير مسيطر للقرارات، وتحليل مهيمن للتطورات.

وبقدر ما نجد الثقافة الغربية متحمسة لمزيد من الدراسات والبحوث الاستراتيجية في جميع المجالات، وخاصة منها المجال الاقتصادي والمجال العسكري، نجد الركود في الثقافة العربية الإسلامية التي استهوتها أنواع من الثقافة الوافدة، لا حظ للعديد منها في نفع الأمة بشيء لا في النهوض ولا في الحركة.

هذا في الوقت الذي أسهم الانفجار المعرفي، وتوسيع دائرة الفكر الاقتصادي في حياة الناس، في جعل الخطاب الاستراتيجي يغزو العديد من المجالات الحياتية للمجتمع

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

الغربي، وأضحى كل فن داخل منظومته الفكرية والثقافية والاقتصادية له أسلوبه في معالجة الداخل، وطريقته في حماية ذاته وحركته ونتاجه من التقلبات المؤثرة والهزات القاتلة.

قد يعزو بعضنا ذلك الاهتمام عند الغرب إلى قوته الفائقة، ويعزو تخلفنا عنه إلى الضعف والوهن الذي نعانيه، ولكن لو تبصرنا فيما يحتويه كل فن من فكر استراتيجي لعلمنا أنّ هذا الفكر لم يعد اليوم حكراً على العسكريين وحدهم، ولا من حق أصحاب القرار السياسي بمفردهم، ولكن صار للعديد من المؤسسات والمقاولات باع كبير في الخوض تحليلا وإبداعا في الدراسات الاستراتيجية، وصياغة أنواع من الفكر الاستراتيجي. بيد أن مؤسساتنا ومقاولاتنا لا تصرف ولو درهما في تشخيص أوضاعها وأمراضها إلا إذا أصبحت على مقربة من الإفلاس، أو أفسد عليها السوقَ منافسٌ لم تحسب له الحساب، ناهيك عن أن تحدث بأجهزتها خلية تهتم بالهزات والتقلبات وما تمليه من قرارات، تحتاج حين الصياغة والتنفيذ إلى استراتيجية محكمة مسبقة الإعداد.

أضف إلى ذلك أن تدويل الاقتصاد، وانتقاله من تبادل سلع بين القبائل والأمم المجاورة، إلى تبادل تجاري معقد، متكافئ حينا وغير متكافئ أحيانا، بين قارات ودول متجاورة أو متباعدة الأطراف، مع تعدد أقطاب هذا الاقتصاد، وما يتولد عنه من حركة وصراع وتنافس دولي، قد ولَّد رغبات في فهم اندلاع النزاعات القطرية والقارية والدولية وصيرورتها في مختلف جوانبها الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية. وأصبح كل مجتمع منافس راغبـًا في مزيد من التوسع المعرفي داخل هذا الفكر، ومطالبـًا أطره المتخصصة بمزيد من الفهم لأدواته وآلياته، متطلعـًا إلى الصراعات الثقافية والفكرية، والتصدي للأزمات الاقتصادية، في غياب أي قانون أخلاقي يحمي الضعيف من الدول والمجتمعات، ويرحم الهزيل من المؤسسات والتنظيمات.

وطبعـًا لا يخفى على اللبيب أن الحرب الثقافية العالمية بكل وجوهها، وخاصة منها ذات الوجه الاقتصادي البارز، تغذي بمفعولها وحركيتها الصراعات المحلية، مؤججة قوى التنافس القطري، ومؤلبة هواجس الحماية القومية. حتى لقد يستوي في الخطر

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

انعكاسات الأزمات الثقافية وويلات المنافسة الاقتصادية غير المتكافئة، لتتولد عن ذلك طاقات احتياطية داخل المجتمع قابلة للانفجار وصب الغضب، تستخدم استراتيجياً من طرف المتنافسين حين الحاجة لتحقيق مكاسب ثقافية أو اقتصادية أو عسكرية هامة.

ولو عمدنا إلى حصر المتدخلين في الساحة الاستراتيجية لوجدنا أنه من الصعوبة القصوى القيام بذلك، والحجة على ما ذكرناه أن من سنن الله الثابتة في الكون دفع الله الناس بعضهم ببعض، ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)، والتدافع صراع فكري وثقافي إيجابي يمنع الفساد في الأرض. والإفساد صراع فكري وثقافي سلبي يهلك الحرث والنسل، ولكل من الصراعين استراتيجياته وفنونه.

فالمتدخلون كثيرون، منهم الدولة والفرد والمجتمع، ومنهم المقاولة والمؤسسة والمنظمة، ومنهم الأحزاب والهيئات والتنظيمات. والعوامل متعددة، منها الزمان والمكان والمناخ، ومنها وضع البيئة، والاقتصاد والسياسة، ورأس ذلك كله الثقافة. فكل فرد تحركه رغباته ونزواته التي تمليها عليه ثقافته، وتحثه على التدافع مع محيطه وأفراد مجتمعه. ويدفعه للعمل الرغبة في الإقدام على الفعل تلبية لدوافع ثقافية واستجابة لمتطلباتها. وكل ذلك يملي استراتيجية ثقافية وفكرية ذاتية يمتلكها الفرد المتحمس الفاعل، تغذيه بالحماس وتشحنه بالأمل، مستوحاة من استراتيجية ثقافية وفكرية جماعية، يمتلكها مجتمع قادر على تطويرها وإعادة صياغتها، حريص على تنفيذها، وجاد في مواجهة التقلبات والتيارات في ضوئها.

الفكر الاستراتيجي بعد أساسي من أبعاد الفكر الإسلامي

طال السبات بالأمة الإسلامية إلى درجة أصبحت ترى جديدا ما هو من صلب دينها وفكرها. وتراه جديدا ليس بإعادة اكتشافه، ولكن حين التأكد من أن البضاعة الفكرية والثقافية المستوردة هي نسخة مشوهة لما تملكه مغمورا في خزائن تراثها المشتكي من شدة الإهمال المتطاول، وضعف الاستفادة والتطوير اللازمين. من ذلك مثلا ما صاغته المدارس الغربية من فكر استراتيجي معاصر، يبدو لنا ظاهرة حديثة من الظواهر العلمية والفكرية التي تشهدها الحركة العلمية والفكرية الإنسانية بفضل قوة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

آلياتها الغربية واجتهادها، بيد أنه لا يعدو أن يكون مشاركة لها حجمها فيما أرساه الإسلام منذ آدم عليه السلام، وطوّر مضمونه إبّان نزول القرآن الكريم وبعده من فن التأهب والاستعداد لتجنب المفاجأة في الدنيا وفي يوم المعاد.

وليس هذا مقام البسط في أصالة الفكر الاستراتيجي عند المسلمين، ولكن نشير إلى نص واحد من التراث الإسلامي العسكري، لا لنعتز أو نفتخر بالسبق في مجال الاستراتيجية والتخطيط، فذلك أمر لسنا ندعي بدأه بالرسالة المحمدية، ولا نهايته عند الأمة الإسلامية، وإنما لنؤكد أمرين:

الأول: أن الرسالة المحمدية أعادت صياغة الفكر الاستراتيجي على قواعد العدل والحكمة والتضحية والخلق الحسن، مما مكن من توسيع رقعة الإسلام وتكثير سواد المسلمين في أقل من سبعين سنة، لم تصل دولتا الروم والفرس مع بطشهما وجيوشهما إلى نصفه في قرون متعددة.

الثاني: أن غفلتنا عن تاريخنا وواقعنا ومستقبلنا، وتخلفنا عن قاطرة الركب الحضاري والعلمي المعاصر، يجدان سببهما وأصلهما في قطيعتنا مع الصافي مما ورثناه من الفكر، وعدم بلورتنا لفكر ذاتي يثريه ويضيف إليه. وأن مفتاح النهوض بأمتنا: العودة إلى تعبئة أفراد الأمة بمضمون دينها وكنه رسالتها معرفة وممارسة وجهادا، وذلك لب الاستراتيجية الإسلامية.

أما قبسنا من التراث الاستراتيجي الإسلامي فهو **للهرثمي** صاحب المأمون في **مختصره** حول سياسة الحروب، الذي أوجز فيه فن الاستراتيجية كما تبلورت في العصور الأولى للإسلام، وحدد فيه صفات الرجل الاستراتيجي المسلم في خمس وعشرين صفة منها:

"التحضيض (أي الحض على القتال)، والتشجيع، والتزاحف (أي الزحف نحو العدو)، والازدلاف (أي التماسّ به)، والمشاولة (أي رفع السلاح بوجهه)، والمساورة (أي الوثوب عليه)، والعطف بعد الحملة (أي رجوع الجند إلى مواقعهم بعد الهجوم)، والطلب بعد الهزيمة، والركوب للمنهزمين، والإلحاح عليه (وهو ما يسمى اليوم باستثمار النصر أو متابعة العدو ومطاردته بعد احتلال مواقعه)"، وأضاف: "أفضل الرؤساء في الحرب أيمنهم نقيبة، وأكملهم عقلا، وأطولهم تجربة، وأبعدهم صوتا،

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

وأبصرهم بتدبير الحرب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايدة، وأحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة، وبسيرهم أوان المسير، وإنزالهم أوان النزول، وإدخال الأمن عليهم والخوف على عدوهم مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، وأن يكون حسن السيرة، عفيفا صارما حذرا متيقظا شجاعا سخيا".[١٠]

ومن قراءة هذا النص غير الوحيد نرى مدى اهتمام المسلمين بفن الاستراتيجية الذي كانت له مصطلحاته، وأسّست له دواوينه، قبل أن نتهافت على فنّ الغير دون مشاركة، ونقتبس فكر الآخر دون إسهام، مكتفين بجهد الاستيعاب بعد خمود نفس الاجتهاد والإبداع والابتكار، وضياع الموروث، والنفور عن بلورته وتطويره.

مفهوم الاستراتيجية

كلمة "استراتيجية" لفظ أعجمي مقتبس من كلمة "Stratégie" الفرنسية أو "Strategy" الإنجليزية، وأصلها في هاتين اللغتين من الكلمة اللاتينية "Strategos"، من "Stratos" وهو الجيش، وفعل "agein" بمعنى قاد. وبهذا المعنى تكون كلمة "Strategos" هي قائد الجيش، و"Strategia" هي فن قيادة الجيش، أو فن قيادة الحروب. ثم اتسعت دائرة استعمال المصطلح في العصر الحديث ليصبح دالا على فنّ التخطيط أو فنّ التدبير في جميع مجالات الحياة المعاصرة.

ولقد بحث كثير من علماء اللغة ومن المفكرين المهتمين بالتخطيط والتنبؤ بالمستقبل عن مدلول هذا اللفظ وصلاحيته للتعبير عن الخطط أو البرامج التي تحمل هذا الاسم مثل "استراتيجية التطوير"، أو "استراتيجية المواجهة"، أو "استراتيجية الردع"، لينتهوا بالقول إن لفظ "استراتيجية" يعني تعبئة الموارد والطاقات البشرية والمادية وتوجيهها لتحقيق شاملٍ وأوسع وأفضل وأمثل للأهداف المسطرة والموضوعة من طرف التنظيم الذي أشرف على وضع الاستراتيجية.

والاستراتيجية قد تترادف أحيانا مع التخطيط، لكن التخطيط يتضمن عدة عمليات، فالتخطيط أسلوب فني يسعى من خلاله التنظيم أو الإدارة إلى تحديد

١٠ الهرثمي الشعراني صاحب المأمون: **مختصر سياسة الحروب**، تحقيق اللواء عبد الرؤوف عون ومراجعة مصطفى زيادة. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، ص١٧-١٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

الأهداف، وتحديد المسار، وتقدير الموارد البشرية والمادية، واختيار البدائل، ووضع القواعد، ورصد الميزانيات، ووضع البرنامج المفصل للجداول الزمنية، كل هذا يسمى تخطيطا، لكن الاستراتيجية تأتي بعد تحديد الأهداف. فالتخطيط يشمل ضمن ما يشمل من العمليات انتقاء الأهداف واختيارها ووضعها، لكن الاستراتيجية هي كيفية الوصول إلى تلك الأهداف، هذا هو موضوع الاستراتيجية.

ذلك أن التخطيط غالبا ما يعبر عن رغبة في تحقيق الطموحات، فيكون مضمونه ترجمة الطموحات إلى أهداف وبرامج عمل توصل لتلك الأهداف. فيتميز - أي التخطيط - انطلاقًا من ذلك بالتركيز على تحديد الأهداف والوسائل بدقة، وبلورة برامج العمل ومرحلتها بتفصيل لإنجاز المخطط. بيد أن الاستراتيجية تعبر عن رغبة في الفوز على الخصم، فيكون مضمونها ترجمة الفوز إلى الأهداف. وهي بذلك تتميز بالتركيز على عنصري الإقدام والمخاطرة من جهة، وعنصري استشراف المستقبل وتوقع ردود الفعل من طرف الخصم من جهة أخرى. ولهذا غلب عليها الطابع العسكري لأنها في كل ذلك تسعى أساسا إلى تحصين خطوط الدفاع، والرفع من مستوى الدقة فيما تقوم به خطوط الهجوم.

والاستراتيجية باستيعابها لردود فعل الخصم، وتطور الأوضاع، بل تغيير المعطيات في حالة عدم إنجاز بند من بنودها، أو خطأ في استشرافها، تكون متميزة عن التخطيط بوعيها الشديد بحركة التاريخ. فإذا كانت برامج التخطيط لا تكلف إلا مراجعة للبرمجة وتوزيعاً جديداً للوسائل في حالة التأخير، فإن أي تأخير في إنجاز الاستراتيجية ينسفها تماما لو أقدم الخصم على استغلاله، ويتطلب إعادة الصياغة لها بإعادة التشخيص للواقع والاستشراف للمستقبل في ضوء ذلك الإقدام الذي سمح به للخصم.

وفضلاً عن ذلك فإن الاستراتيجية عادة ما تكون مرنة ومفتوحة على أكبر عدد ممكن من الاحتمالات والبدائل التي تمت دراستها بناءً على استشراف المستقبل وتوقع ردود فعل الخصم. أما التخطيط فعملياته إذا كانت تحتمل الإضافة والحذف والتعديل، فإنها لا تحتمل برمجة كل البدائل المحتملة، بل تكون ترجمة لتنفيذ ما تم اختياره من

الحصري والجديد www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البرامج بعد دراسة الحاجيات، مع الأخذ بعين الاعتبار لمختلف التوقعات، لكن بعد الحسم في اختيار الأنسب من بدائلها المتوقعة.

ولهذا كان من السهل تحديد ميزانية للتخطيط، مع أنه من الصعوبة تحديد ميزانية لتنفيذ جميع بنود الاستراتيجية، لارتباطها بالتوقع والاحتمالات. فالتخطيط تجسيد للطموحات، وصمّام أمان لاستنفار الطاقات، وضمان محفز للتعبئة والإعداد، ومحرك فعّال لترجمة التخوفات إلى برامج عمل، وهو في صورته الأخيرة هذه حين الانتقال إلى تجسيد العمل، يلتقي مع الاستراتيجية.

وطبعا قد تحتاج الاستراتيجية إلى مزيد من بلورة الأهداف، وإلى مزيد من إجلاء تفاصيل هذه الأهداف وإيضاحها، وبالتالي يمكنها كما ذكرنا أن تكون مرادفا للتخطيط إذا كان التخطيط ديناميكيا شديد التأثر بحركته التاريخية. وسواء تعلق الأمر بالتخطيط أم بالاستراتيجية، فإننا حين نباشر موضوعا ما من الناحية الاستراتيجية، لا بد أن نجيب على الأسئلة التالية: ماذا؟ ولماذا؟ ومتى؟ وكيف؟، ففي خضم هذه الأسئلة يتحدد الإطار والأسلوب الذي من خلاله ستتم التعبئة والتنسيق والتوجيه الحاضر والمستقبل، بغية تحقيق أهداف محددة ومرسومة من طرف التنظيم المشرف على عملية التخطيط أو عملية وضع الاستراتيجية، علما بأن "لماذا" و"كيف" هما السؤالان الأساسيان اللذان تصاغ وفقاً للإجابة عليهما الاستراتيجية.

وما دامت "الاستراتيجية" هي فن قيادة المعارك، فهي تعتمد أساسا على استقراء الواقع واستشراف المستقبل لأنها تتكون من عنصرين أساسيين: الإقدام والابتسار.[١١]

---

١١ الابتسار كلمة عربية أصيلة تعني القيام بالشيء قبل أوانه، وهو المراد من كلمة Anticipation الفرنسية الكثيرة الاستعمال عند العلماء والخبراء المختصين في الاستراتيجية والمستقبلية الناطقين بالفرنسية. ويترجح اختيارنا لكلمة "الابتسار" بدلا من كلمات: "تقديم" و"تسبيق" و"سبق" و"توقع" التي تقترحها المعاجم لأنها أقرب إلى الدلالة على المراد بالكلمة المرادفة لها بالفرنسية. فلقد جاء في **لسان العرب** لابن منظور: "والبَسْرُ: الإعجال، وبَسَرْت الدمل إذا عصرته قبل أن يتقيح" (وهذا هو الهدف من ابتسار الزمن القادم، أي التفكير في أزماته المحتلمة قبل أن تقع، والمبادرة بعلاج أسبابها قبل أن تستفحل)، وبسر حاجته يبسرها بسرا وبسارا، وابتسرها وتبسرها: طلبها في غير أوانها (والمراد فعلاً في مجال علوم المستقبل والإعداد للغد من الابتسار، التفكير في مشكلات محتملة الوقوع في المستقبل قبل وقوعها بالفعل). وتَبسر طلب النبات أي حفر عنه قبل أن يخرج، وبسر النخلة لقحها قبل أوان التلقيح.

فعنصر الإقدام يتعلق أكثر بشكل الوسائل والجيوش في الاستراتيجيات العسكرية إذ يقتضي معرفة تامة بالواقع، والابتسار يتعلق أساسا بتوقع ردود الفعل، وهو أمر يحتاج إلى استشراف للمستقبل، وإلى معرفة وتقدير مختلف الحوادث (السيناريوهات) والمشاهد المحتملة، حتى يمكن للاستراتيجي أن يستوعب مختلف ردود الفعل الممكنة والمحتملة.

ولقد تطور مفهوم الاستراتيجية تطوراً كبيراً عبر التاريخ. وإذا اكتفينا بالتاريخ المعاصر فهي عند **كارل فون كلاوزفيتز** Carl von Clausewitz[١٢]- كبير الكتاب العسكريين في القرن التاسع عشر- فن استخدام المعارك وسيلة لتحقيق أهداف الحرب. ثم جاء أحد تلامذته من بعده، وهو القائد **هلموث فون مولتكه** Helmuth von

---

ومما يزيد من تمسكنا بهذه المقابلة للكلمة الغربية، أن علوم المستقبل تريد نوراً في ظلمات الزمن القادم، وتبحث عن ضمانات الارتواء وسبل ذلك في أودية الغد المحتملة الجفاف، **والابتسار** يترجم تلك الإرادة وذلك البحث. ويضيف **ابن منظور**: "وبسر النهر إذا حفر فيه بئراً وهو جاف، وأبسر إذا حفر في أرض مظلومة، وابتسر الشيء أخذه غضاً طريا، وفي الحديث عن أنس قال: (لم يخرج رسول الله ﷺ في سفر قط إلا قال حين ينهض من جلوسه: اللهم بك ابتسرت، وإليك توجهت، وبك اعتصمت، أنت ربي ورجائي، اللهم اكفني ما أهمني، وما لم أهتم به، وما أنت أعلم به مني، وزودني بالتقوى، واغفر لي ذنبي، ووجهني للخير أين توجهت"، انظر: **لسان العرب**، ج٤، ص٥٧-٥٩. وبما أن البَسْر والبسار والابتسار والتبسر كلمات مترادفة، وبما أن من معاني البسر معنى آخر مخالف لما نريده من كلمة الابتسار، وهو النظر بكراهة شديدة، فإننا نفضل استعمال كلمة "ابتسار" لكونها علاوة على ما تقدم، توحي بمجيئها على وزن افتعال بإرادة ذاتية مقصودة للفعل من الفاعل، والابتسار في البعد الزماني إرادي ومقصود كذلك.

١٢ **كارل فون كلاوزفيتز** (١٧٨٠-١٨٣١)، جنرال بروسي ومفكر عسكري، تعلم العسكرية ببرلين، ثم غادر بروسيا ليحارب ضمن الجيش الروسي ضد الجيوش الفرنسية. وفي ١٨٣٠ أصبح رئيساً لأركان القيادة العامة للقوات البروسية. كان شديد الإعجاب **بنابليون**، فكانت مؤلفاته العسكرية العديدة، وأهمها كتابه الشهير **حول الحرب** *De La Guerre*، الذي كان تجسيداً وتطويراً لأفكار نابليون الحربية. أما فكره الاستراتيجي فيعتمد على القوة بوصفها العامل الأساسي للوصول إلى الحل الحاسم، وذلك من خلال استراتيجية ذات محورين: الأول خوض حروب الإبادة مع الإيمان بأنه أيا كان عدد الجيوش فهو غير كاف، وأن الحرب جزء متمم للسياسة وخاضع لها، وهي بذلك إستراتيجية تحمل قوتها داخل منهاجها وبرامجها. فاعتنق أفكاره عديد من القادة الألمان والروس المؤمنين بالنصر الحاسم من خلال القوة، وعارضه الذين يرون أن العوامل الأساسية في الاستراتيجية استخدام الوسائل الديبلوماسية والسياسية والاقتصادية، ويؤمنون بأن قوة الاستراتيجية تكمن في محيطها وليس في كنهها، لأن المحيط إذا تغير تغيرت أو أصبح لا حاجة للاستراتيجي بها ولا بتكييفها مع الوضع الجديد. وأحسن من كتب حوله وحول فكره الاستراتيجي من الكتاب المعاصرين الفيلسوف الفرنسي **ريمون أرون** Raymond Aron في كتابه **التفكير في الحرب** *Penser la Guerre* من مجلدين، طبعة غاليمار، باريس، ١٩٧٦.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

Moltke،[١٣] فطور هذا المفهوم ليصبح دالا على فن استخدام الوسائل الموضوعة تحت تصرف القائد العسكري لتحقيق أهداف الحرب. وبعد تفتت بروسيا انتقلت المدرسة البروسية إلى ألمانيا حيث نجد الألماني **إيريك لودندورف** Erich Ludendorff،[١٤] يعرف الاستراتيجية بأنها "دخول المعارك الحاسمة للقضاء على جيش العدو وتحطيم إمكانياته".

وفي بداية الستينيات، أصدر الجنرال الفرنسي **أندري بوفر** André Beaufre كتابه الشهير **مدخل إلى الاستراتيجية** *(Introduction á la stratégie)*، الذي أضحى مرجعًا لطلاب المدارس العسكرية والاستراتيجية، قدم فيه التعريف التالي: "إنني أعتقد أن روح الاستراتيجية كامنة في اللعبة المجردة الناجمة عن تعارض إرادتين. إنها الفن الذي يسمح، بعيدا عن كل تقنية، بالسيطرة على معضلات كل صراع، حتى يسمح باستخدام التقنية بأقصى فاعلية ممكنة. إنها إذن فن حوار القوى أو بالأحرى فن حوار الإرادات التي تستخدم القوة لحل خلافاتها".[١٥]

ويتضح من هذه التعاريف أن مفهوم الاستراتيجية قد تطور عند منظريه حسب توفرهم على القوة وتأكدهم من تحقيق النصر، لكننا نجد التعاريف الأكثر حداثة ترى أنه ليس من الضروري أن يدخل القائد معارك حاسمة لتحطيم جيوش أعدائه كما شرح **لودندورف**، ولكن قد يكون من الأفضل، تحت ظروف معينة، استخدام خطة أهداف محدودة تعتمد على تحطيم معنوياته، وتعطيل حركته بضرب مؤخراته ومراكز اتصاله وتموينه، وتفادي الاشتباك معه في أية معارك حاسمة. فليس من الضرورة أن يخوض القائد حربا، بل الأهم أن يصل إلى الانتصار، وتكون الخطة التي اتبعها، والسياسة التي انتهجها للوصول إلى ذلك الانتصار بالوسائل الموضوعية تحت إشارته أو رقابته فنا يوصف بـ "الاستراتيجية".

---

١٣ **هلموث فون مولتكه** Helmuth von Moltke (١٨٠٠- ١٨٩١)، مارشال بروسي، اشتهر ببطولته في معركة سادوفا في ٣ يوليوز ١٨٦٦ التي انهزمت فيها جيوش المجر على يد جيوش بروسيا بقيادة مولتكه.

١٤ **إيريك لودندورف** (Erich Ludendorff) (١٨٦٥-١٩٣٧)، جنرال ألماني لمع نجمه إبان الحرب العالمية الأولى.

١٥ الجنرال أندري بوفر: **مدخل إلى الاستراتيجية**، تعريب وتعليق أكرم ديري والمقدم هيثم الأيوبي، بيروت: دار الطليعة، الطبعة الثالثة، يناير ١٩٧٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

ونحن إذ نشير إلى ذلك، فلنؤكد أن "الاستراتيجية" لا تعتمد على مسح شامل للمعلومات كما قد يتصور، ولا على كمال في التأكد من النصر كما يتبادر للذهن، ولكنها تسمى "استراتيجية" حينما تصبو إلى أهداف معينة، بعيدة عن الطموح المغامر أو المغرور، وتخطط لإنجازها بالوسائل الممكنة، محاولة أن تجمع ما استطاعت من معلومات، ولكنها تضع دائما نصب أعينها أنه في حالة الإخفاق، ستتصرف بنوع مدروس ضمن بنودها لتستدرك قواها وتستجمع أدواتها، كي تباغت من جديد ذلك العدو الذي تواجهه حتى تصل إلى مرادها، محركها في كل ذلك الإقدام، ودليلها إبان كل ذلك الابتسار.

جـ ـ مفهوم استشراف المستقبل: وكما حددنا مفهوم الاستراتيجية، فإننا نحدد المراد من مفهوم الاستشراف حتى يكتمل الفهم الشامل للتعريف الذي قدمناه لمصطلح الاستراتيجية. والاستشراف في لغة العرب تحديد النظر إلى الشيء بشكل يجعل الناظر أقوى على إدراكه واستبيانه، كأن يبسط الكف فوق الحاجب كالمستظل من الشمس، أو ينظر إليه من شرفة أو مكان مرتفع، أو يمد عنقه ويسدد بصره نحوه، كل ذلك يفعله للإحاطة بشكل الشيء والتدقيق في ماهيته.

وقد جاء في **لسان العرب**: "تشرف الشيء واستشرافه: وضع يده على حاجبه كالذي يستظل من الشمس حتى يبصره ويستبينه، ومنه قول ابن مطير:

فيا عجبا للناس يستشرفونني كأن لم يروا بعدي محبا ولا قبلي!

وفي حديث أبي طلحةﷺ عنه: أنه كان حسن الرمي، فكان إذا رمى استشرفه النبيﷺ لينظر مواقع نبله، أي يحقق نظره ويطلع عليه. والاستشراف أن تضع يدك على حاجبك وتنظر، وأصله من الشرف العلو، كأنه ينظر إلى موضع مرتفع فيكون أكثر لإدراكه".[١٦]

وذكر صاحب **المحيط**: "واستشراف الشيء: رفع بصره إليه، وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس".[١٧]

ونضيف أنه رفع بصره إليه لينظر إليه نظرة متفحصة حتى يحيط به ويستبينه، وبسط كفه فوق حاجبه ليتجنب أي شعاع ضوئي يشوش على رؤيته، حتى يكون

---

١٦ ابن منظور: **لسان العرب** بيروت: دار صادر، جـ٩، ص١٧١-١٧٢.

١٧ الفيروزآبادي: **القاموس المحيط**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص١٠٦٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

نظره حديداً وصورة ما ينظر إليه أوضح له. ومن هنا كان استشراف المستقبل هو النظر إلى الزمن القادم ببصر حديد ونظر ثاقب، بغية تصور الواقع المقبل، انطلاقا من شرفة الواقع الحاضر، واستيعابا لعبر الواقع الراحل.

وعلى الرغم من أننا نميل إلى الاستمساك باسم لعلوم المستقبل تضرب جذوره اللغوية في لغة العرب الأوائل، فإننا لا نسعى إلى نهج أسلوب إسقاط التعابير المعاصرة على مفردات تراثنا اللغوي، ولن نحاول عبثا تحميل التاريخ ما لا يحتمل، وندخل على التراث ما ليس فيه، فنتصنع أصولا إسلامية أو تراثية لعلوم المستقبل الحديثة، أو نختزل نصوصا للبرهنة على سبق العرب والمسلمين في ميدان الاهتمام بالمستقبل. فذلك أمر إن كان يؤيده كوننا أمة مأمورة وحيا بالإعداد والتقديم للغد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر:١٨)، وهو أمر صريح للاهتمام بالمستقبل، فإن غفلتنا المزمنة عن هذا الإعداد ترمي إلى الدلالة على العكس.

فكون الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية نصت وطلبت من المسلمين العمل على الاهتمام بمستقبلهم الدنيوي، لكسب مستقبل أخروي، وحثتهم على إحكام العدة، وإتقان التطلع، فإن ذلك لا يكفي للدلالة على سبق المسلمين في ميدان العلوم المستقبلية، علما بأن الأمم السابقة من أهل الكتاب أمرت أيضاً بالإعداد والاستعداد.

ولا يعني قولنا هذا أن المسلمين الأوائل كانوا فاقدي الحس المستقبلي، أو منعدمي التخطيط بعيد المدى، بل على العكس، كان التخطيط خير حافز لهم لتخطي العقبات ومواجهة التحديات، والعمل لصالح قومهم والأجيال المقبلة من ذريتهم، حتى أنهم لم يروا المستقبل في أنفسهم، بل رأوه في أبنائهم وأبناء من يدخلون دين الله أفواجا في زمنهم ومن بعدهم، أبناء التواقين للحرية والانعتاق من جبروت الطغاة، فهاجروا من ديارهم، وضحوا بدنياهم في سبيل دينهم، كي يعيش الخلف في رغد من العيش، وحرية في الدين، تضمن حياته ومستقبله ومستقبل دينه.

تطور الفكر الاستراتيجي المعاصر

ولعل الدارس لتاريخ الاستراتيجية وتطورها يصاب بالدهشة حين يكتشف أنها تجميع لعديد من الآراء، وكأنها تكرر المفاهيم نفسها زمنا بعد زمن، بل يحس أنها

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

تراكم لأفكار متشابهة وضع بعضها فوق بعض دون رابط عضوي يجلي بنصاعة معالم النظرية. والمحقق في نصوص نظرياتها لا يدهش لذلك، بل يدرك أن النظرية لم تكن تحتاج لأن تتبلور بمزيد من التوسع إلا في فنون تحقيق النصر وأساليبه حسب وسائل المواجهة المتاحة. فكلما تغيرت تلك الوسائل كان في التنظير الاستراتيجي نوع من المراجعة والتقويم، في ضوء ما تتيحه تلك الوسائل من فرص تحقيق النصر وجلب الفوز، لكن نستطيع أن نجزم أن النظرية لم تصغ من خلال تجميع لآراء وأفكار استراتيجية عبر التاريخ، بل يعاد تفسيرها حسب نوع التطور الحاصل في الوسائل، لأنها أساسا مبنية على الفطنة والحذق والذكاء على صعيد القادة، والنظام والانضباط والحزم والصبر على صعيد الجيش ككل، وإنما تدوين تلك النظرية هو الذي تم على دفعات زمنية حسب الحاجة إليه.

فالأولون لم يكونوا من الراغبين في تدوين استراتيجياتهم بقدر ما كانوا راغبين في تدريب قياداتهم وخبرائهم على فنون التعبئة والمواجهة، وحماية أنفسهم من مكايد العدو وتقنياته الحربية. وهذا يحتاج أساسا إلى التمرس والتدرب العملي والفعلي، ولا حاجة في تحقيقه إلى تدوين الجانب النظري، بل حين التمرين والتمرس يتلقّى القائد أو الفارس المتدرب ما يلزم من التنظير والتطبيق على السواء.

لكن لما أنشئت المدارس العسكرية المعاصرة، واتسعت فنون وأساليب التعبئة والمواجهة وأساليبها، حسب تطور الأسلحة وأدوات الصراع، أضحى تدوين النظريات الاستراتيجية ودراستها وتمحيص بنودها نوعا من المادة اللازم تلقينها للضباط الكبار والعسكريين. وحسْبُ الأولين من الجهد في هذا المجال أنهم دونوا المتاح من النصوص النظرية والعملية، وألفوا في هذا مصنفات تضم زادا ضخما متناثرا داخل ما حرروه ودونوه من كتب التراث، يحتاج إلى الجهد والكد كي يستجمع ويستخرج.

وعلى الرغم ممّا بلغ تقدم التكنولوجية العسكرية والحربية في عصرنا هذا، فإن النظرية الاستراتيجية لم تعرف تقدما في نفس المستوى ولا على نفس الوتيرة، فهي ما زالت على حالها في كثير من بنودها، لأن الحنكة والدهاء والفطنة المطلوبة هي هي. إلاّ أن إمكانية استجماع كمّ هائل من المعارف، وتوافر سيل عارم من المعلومات

حول أوضاع الخصم وأدواته، جعل هذا الفن يعرف نوعا من التقعيد لم تعد تكفي فيه الفطنة والذكاء والحيلة والحنكة.

ولعل أخطر تقدم عرفه هذا الفن هو في وسائله وليس في تنظيره، لأن النظرية لم تعرف ابتكارا يميزها عن سياقها القديم، ولكن تمت توسعتها بفعل وسائل أربعة:

- الإعلام وتقنيات الاتصال.
- الصناعة الحربية بمختلف أشكالها.
- القوة الاقتصادية.
- التقنيات المتقدمة في المجال الاستخبارات وتقصي المعلومات وتحليلها.

وأهم نتائج ذلك أربع:

- فهناك إمكانية للتأثير في دائرة أوسع.
- وهناك فرص للتعبير في قنوات متعددة ومختلفة.
- وهناك إمكانية لاستجماع المعلومات في وقت أسرع.
- وهناك إمكانية للتدمير في وقت وجيز.

وهذا كله يساعد الاستراتيجي في مجال المنازلة أياً كانت ساحة استراتيجيته، سواء العسكرية أو السياسية والدبلوماسية أو الاقتصادية أو الثقافية والفكرية على أن ينازل وهو متحقق من دقة القرار وسرعته، وفي ظروف غالبا ما يتحقق له فيه النصر، ويتم لصاحبه فيها الحسم.

لوازم الدراسات الاستراتيجية

أ ـ توافر ثروة كافية من المعلومات: ووجود الإعلام بأشكاله المتعددة، والأطالس بطبعاتها المتنوعة، وتوافر المعلومات بقراءات مختلفة موجّهة ومطعّمة، جعل الكفة في جميع الميادين لصالح الغرب ومؤسساته. ويكفي للدلالة على ذلك كون الباحث في عالمنا التعيس حول وضع من أوضاع وطنه، لا بد وأن يعمد للإحاطة بالمعلومات التي يرجوها وينوي اعتمادها، بعد جهد التقصي وضنك المتابعة، إلى اقتباسها ونقلها من المراجع والحوليات والدوريات والدراسات ومراكز المعلومات الغربية.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

فالمعلومات عن الشعوب والحضارات وعاداتها وتقاليدها، وتاريخها وتراثها، أصبحت كلها في متناول الرجل الغربي، وكذا المتمكن من لغته، بتكلفة أقل بكثير مما كانت تكلف سابقا، طبعا بقراءاتها وتحليلاتها الخاصة، لكن بزادها الضخم بالمعلومات والمعطيات التي تعجز عن توفيرها الحضارات والشعوب موضوع التحليل والدرس. ولقد أضحى اليوم اقتناء مكتبة كاملة حول تاريخ الشعوب والأمم والحضارات، وما ابتكرته من تقنيات، وما صاغته من أفكار، وما أبدعته من معارف، هو من حيث التكلفة دون اقتناء سيارة من النوع العادي. والغاية القصوى من توفير ذلك بديار الغرب تمكين المواطن الغربي خاصة من معلومات ومعارف حول كيفية تفكير الآخر وتنظيمه وإقدامه، وقيمه وأحلامه وآماله.[١٨]

فتلك المعلومات على الرغم من دقتها وتنوعها وتفاصيلها لم تُصَغْ ليستفيد منها الاستراتيجي وحده، وإنما صيغت ليحدث لدى الأمة ذلك الوعي الجماعي المولّد لنسيج الحماس والإقدام عند كل فرد من أفراد مجتمعاتها. ولطالما اعتبرنا في بلداننا العربية المعلومة موقوفة على الخبير وصاحب القرار، وضيقنا واسعا بعدم السماح بتداولها حتى في أوساط النخب المثقفة. بيد أننا نجد التقارير التي تنجزها المؤسسات في مجال الدراسات الميدانية، أو خبراء كل فن من الفنون الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية بالغرب، سواء لصالح وزارة أو هيئة رسمية أو غير رسمية، تنشر في معظمها ليستفيد منها جمهور واسع من المهتمين والمتتبعين. فنادرا ما تجد عندنا ذلك الحس في توسيع دائرة المعرفة، لا خشية أن يطلع عليها الآخر، وإن فسّر الأمر بذلك ذريعة، ولكن لأن أصحاب القرار ألفوا الأحادية في اتخاذه، فاستغربوا المشورة وضرورة إطلاع أفراد المجتمع على ما يصاغ لهم من مستقبل، وما يعالج لهم من مشاكلات. فقيام أصحاب القرار هؤلاء بذلك دلالة في رأيهم على عدم كفاءتهم في الكلام باسم الأمة والنيابة عنها في تدبير قضاياها وأمورها.

---

١٨ برنارد نادوليك: **الذكاء الاستراتيجي** مركز الاستشراف والتقدير الفرنسي التابع لوزراة البحث العلمي والتعليم العالي.

Bernard Naoulek: *L'Intelligence Stratégique,* Etude 100 du Centre de Prospective et d'Evaluation. diffusion Editech, 1988, p14.

ب ـ كمال منظومة الأفكار: وطبيعي أن تُشَكّل الاستراتيجية وفقاً لمنظومة القيم ونظم الأفكار التي تسود لدى صائغيها، حسب الميدان المتعلق بها، أي انطلاقا مما هو سائد من الثقافة. فهي في كل ذلك لها جانب على قدر كبير من الأهمية هو الجانب الاجتماعي المتمركز حول ضرورة معرفة الاتجاهات الضخمة الممكنة من فهم التصرفات الجماعية واستيعابها للمجموعات البشرية.

يقول **مالك بن نبي** في مقدمته الأولى لكتابه **مشكلة الثقافة**: "إن تنظيم المجتمع وحياته وحركته، بل فوضاه وخموده وركوده، كل هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع، فإذا ما تغير هذا النظام بطريقة أو بأخرى فإن جميع الخصائص الاجتماعية الأخرى تتعدل في الاتجاه نفسه. إن الأفكار تكوّن في مجموعها جزءا هاما من أدوات التطور في مجتمع معين، كما أن مراحل تطوره المختلفة هي في الحقيقة أشكال متنوعة لحركة تطوره الفكري، فإذا ما كانت إحدى المراحل تنطبق على ما يسمى بالنهضة، فإن معنى هذا أن المجتمع في هذه المرحلة يتمتع بنظام رائع من الأفكار، وإن هذا النظام يتيح لكل مشكلة من مشاكله الحيوية حلا مناسبا".[١٩]

والاستراتيجية تصاغ بعد مدّ وجزر فكري تحليلي، جزر زمني يرجعك إلى حقبات من التاريخ تمكن من فهم تطور أنماط الحياة والفعل داخل المجتمعات المدروسة، واستيعاب حركاتها الاستراتيجية انطلاقا من تفاعلها التاريخي وصيرورتها عبر الحقبة التاريخية المدروسة، ومدّ على زمن المستقبل لاستشراف المتوقع من الأحداث بناءً على تيارات الزخم الحركي الذي تم رصده، ودراسة آلياته.

وفي الفكر الاستراتيجي، ينحصر فهم الآخر عند التدقيق في معرفة ردود فعله، وهذا يستدعي معرفة ماضيه وحاضره، والدراية الشاملة بتطور أوضاعه وتقلبات تاريخه، فتكون غائية الاستراتيجية تكهن ردود فعل الآخر من خلال اختراق تاريخه

١٩ مالك بن نبي: **مشكلة الثقافة**، ترجمة عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤، ص١٣. ولقد كتب **مالك** مقدمته الأولى لهذا الكتاب حين كان بالقاهرة في ٢٦ فبراير ١٩٥٩، لكن قليلون هم المثقفون الذين وعوا ما ذهب إليه، رغم إعجاب العديدين منهم بأفكاره ومقولاته.

الحصري والجديد www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وواقعه، أي بمعنى آخر استعادة التمكن من الذات الثقافية من خلال توحيد الأداء تجاه تعددية في الفعل يفرضها العالم.[٢٠]

والخطر يكمن كذلك في ذلك الزخم من المعلومات المولّد لمزيد من التحليلات والاستنتاجات، والمكبل أحيانا للفعل حين العجز عن ترجيح الاحتمالات أو حين الإخفاق في اتخاذ أنجع القرارات، وذلك لضعف في منظومة الأفكار. فمحتوم على الاستراتيجي البعد عن التذبذب في معالجة القضايا، وواجب في حقه تثبيت الخطى والسير على نهج سليم، مع وعي كامل بالمخاطر والهزات، ونظر حديد في ساحة المستجد من الأمور والمحدثات. فالتوقف قاتل، والإقدام بناء على توهم انتحار، والخطى الثابتة تستدعي التأني في المشي مع السرعة في اختراق النور لظلمات الطريق.

ونوضح ذلك فنقول: حركة الاستراتيجي في ساحة الصراع يقودها تحليل المعلومات حول الخصوم وردود فعلهم من جهة، وتفاعل الذات مع الساحة وانعكاساتها من جهة أخرى، مع توافر زخم آخر من المعطيات حول خريطة الساحة ومناخها وتضاريسها. فقلة المعلومات موقفة للحركة، وتدفقها على وتيرة سريعة معطل لمختبرات التحليل، مشل للحركة.

ولعل هذا ما يفسّر صعود الأمم وانهيارها، فهي تتألف وتصعد حين تتماشى معلوماتها ومعارفها مع آليات هضمها الذاتي، وتنهار حين تعجز عن مواصلة الهضم، متوهمة استمرار قدرتها على المواكبة والتحليل لمستجدات الأمور وحركات الخصوم. فالمرض القاتل للأمم يكمن في صعوبة إدراكها لتوقف الروح الاستراتيجية بها، ويبدأ التوقف في العجز عن استجماع المعلومات الضرورية حول الأنا والآخر بمختلف أنواعها، أو تراكمها دون تحليل لعطب في آليات التحليل، والاستنباط، أي بتسرب الخلل إلى منظومة الأفكار.

جـ ـ إتقان التحليل الديناميكي للأحداث: أي تخطيط ثقافي لا يمكنه أن يتعمق في الثقافة بشكل فعلي إلاّ إذا انطلق من دراسة ما يموج من الأفكار والآراء في الساحة الثقافية، وما هو منها سائد وأسباب سيادته، وما هو منها بائد وأسباب بيادها، وما هو منها كامن يترقب وحظوظ انبثاقه أو سطوه، آخذاً بعين الاعتبار تفاعلاتها

---

٢٠ برنارد نادوليك: **الذكاء الاستراتيجي**، ص١٥.

الديناميكية وتقلباتها الزلزالية، خاصة حين يصبح تسارع الأحداث والهزات ظاهرة تطبع حركة التاريخ المعاصر، ويصبح التحليل الذي أنجز البارحة غير صالح اليوم لبعده عن الواقع الذي تطور فجأة بين الأمس واليوم. وأراني مضطراً لتوسيع الشرح إلى ضرب المثل: هب أن باحثاً انكب منذ ثلاث سنوات على إعداد بحث حول اقتصاد ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي وتقديم الحلول التي يراها ناجعة له، فما أظنه إلا في تقص للمعلومات مستمر، إذ بين دراسته للوضع وتقديمه للحل يكون الوضع قد تطور تطوراً جعل حله نوعاً من العبث والجهل بالواقع.

ولقد سبق القول منا أن الثقافة تجسيد للمكتسب من الصراع والحرب بين حق وباطل، والتشابك بين أيد راغبة في الإصلاح وأياد تسعى لنشر الفساد، علماً بأن الجو يعكره ويزكمه وجود أجساد عفنة تساعد على الإفساد. وما دام الأمر حرباً وصراعاً فينبغي النظر إليه انطلاقًا من الوجهة الاستراتيجية التي تقدر حجم عتاد الخصم، وتتزود لكسب المواجهة بالإعداد لتحقيق الحسم. والوصول إلى ذلك يمر عبر مراحل وعي ثلاث:

١ـ الإدراك لنوع التقلبات والتفاعلات وحدتها ودوافعها.

٢ـ التبصر بتطورها وانعكاساتها على المستقبل الآني والبعيد.

٣ـ الإعداد المحكم لمواجهتها بالمستطاع الآن والمستطاع غداً.

ولا يخفى على اللبيب أن تناول العوامل المختلفة للحركة الاجتماعية والسياسية والفكرية في عالمنا التعيس قد أفسده خوض جمهور عريض من غير المتخصصين، وفضول جمهور غير قليل من المنتفعين ومرتزقة الفكرة ومقاولي الثقافة في قضاياه التاريخية والمعاصرة، وتحليل أسبابها ودوافعها بشكل جعل الأمر ينتقل باستمرار من إشكال إلى تعقيد، ومن غموض إلى مزيد من الغموض.

وحتى لا أخوض في بيان أمر يكفي في الدلالة على أهميته سرد مثال أوجز القول فيما يلي:

في ١٥ إبريل ١٩٧٩، أصدر البابا الحالي للكنيسة قانوناً دستورياً للجامعات الكاثوليكية جاء في مدخله:

الحصري والجديد www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

"إن مهمة نشر **الإنجيل** هي من صلب عمل الكنيسة، والقيام بها لا يستلزم أن يبشر **بالإنجيل** في البقاع الجغرافية المستمرة التوسع، ولا لجماهير الناس المتنامية الأعداد فقط، ولكن أن تنفذ قوة هذا **الإنجيل** إلى أنماط التفكير، وأساليب التقويم، ومعايير الحكم. وفي جملة واحدة، أضحى ضرورياً أن يغمر **الإنجيل** كل ثقافة الإنسان".[٢١]

دعك من صغار المفكرين الذين يقيمون الدنيا دون أن يقعدوها في جعل وبال الأمة وحصر تخلفها في وجود نشاط مكثف لرجال التنصير. وتمعن معي في النص أعلاه كيف تعامل معه الإعلام، ستجد ـ وأشهد بذلك عن خبرة في الموضوع ـ أنه لم يعر أيُّ جهازٍ إعلامي بالاً له، إلا ما كان منه تابعاً للكنيسة نفسها بشكل رسمي. أما في العالم الإسلامي، فلم يعرف صدوره ولا رصد نشره حتى يلتفت إليه ويرد عليه.

وغايتي تصور مشهد ينطلق من أن نصاً مماثلاً صدر عن مؤسسة أو هيئة إسلامية، سواء لها حجمها في صدور القرار داخل العالم الإسلامي أم ليس لها من ذلك شيء. ولنستبدل كلمات **الإنجيل بالقرآن** والكنيسة بالإسلام. سيصبح النص كالآتي:

"إن مهمة نشر القرآن من صلب دعوة الإسلام. والقيام بها لا يستدعي أن يبشر بالقرآن في البقاع الجغرافية المستمرة التوسع، ولا لجماهير الناس المتنامية الأعداد فقط، ولكن أن تنفذ قوة القرآن إلى أنماط التفكير، وأساليب التقويم، ومعايير الحكم. وفي جملة واحدة، أضحى ضرورياً أن يغمر القرآن كل ثقافة الإنسان".

يصعب عليك أن تتصور قوة ردود الفعل من طرف الإعلام القائم المتقي لعملية الإثارة من جانب، والاحتواء من جانب آخر. وكم ستفسد عليك تلك الردود عملك الفكري ليس لاهتمامك بها، ولكن لانشغال جمهورك الذي تصرف الجهد لتوعيته بصداعها وتطورها. ولا تهم الضجة الإعلامية المفكر إلا بأثرها في تفسير المصطلحات وتأويلها بشكل مفسد لعملية الفكر. فالأثر في الأدوات من طرف الإعلام التافه خطير، وشحن المناخ بضباب الخطاب المستفز مفسد للرؤى والتأملات. أما لو صدر ذلك القول عن شخص يحمل اسم **آية الله الخميني** أو **الشيخ عباس**

---

21 *Constitution apostolique* Sapientia Christiana du 15 avril 1979 "Sur les Universites et les Facultes Ecclesiatique", Jean Paul II, Discours du pape et Chronique Romaine, Supplement au numero 359, Aout 1979, p5-6.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

مدني، فإن إعصاراً سيهب على مختبرات تحليلك، وعاصفة هوجاء ستفسد فعالية أدوات معرفتك، بشكل يستدعي المراجعة وصرف غير قليل من الطاقة في إبعاد أثر الإعصار ووقع العاصفة.

حسبك ما عاشته المؤسسات العلمية الإسلامية من حرج شديد، وتجاذب خطير، ونزعات نحو الجمود وقت فتنة **سلمان رشدي**، أو فتنة حرب الخليج. ويكفيك للدلالة على المراد استيعابك لما خضعت له القنوات الفكرية من الخنق وانشغال الجمهور بمختلف أنواعه عنها، مهرولاً وراء أبواق خطاب التزيّد أو المزايدات والحمية ـ حمية الجاهلية. فلقد أفسدت تلك الهزات وما صاحبها من الدوي الإعلامي الأجوف كثيراً مما كانت تصبو إليه همم النحارير، وسال من لعاب الفكر الجاف ما عجزت عن احتوائه كبريات القماطير. وما يجري الآن بالقطر الجزائري والفلسطينيْ والسوادني والأفغاني وبأقطار أخرى بالعالم الإسلامي قريب من ذلك أو شبيه به.

يضاف إلى تلك الأعاصير والعواصف ظاهرة لا يمكن نكران وجودها وتطورها، وهي ظاهرة الانفجار المعرفي، والمتجلية في تلاحق الاختراعات العلمية، والابتكارات التكنولوجية، على وتيرة لم يشهدها التاريخ من قبل، وبسرعة مذهلة جعلت من عجب القول التصريح بالحقيقة القائلة بأن قرابة الثمانين بالمائة من العلماء الباحثين في مجالي العلم والتقانة من ثلاثة ملايين بحث أو مقال علمي ينشر في العالم كل سنة، وهذه الأعداد في صعود متواصل ومسترسل.

وإذا كانت الثورة الصناعية في القرن الميلادي الماضي قد قدمت للإنسان من الأدوات والآلات ما مكنه من مزيد المعرفة لمحيطه، ومزيد من الاستغلال سلباً أو إيجاباً للموارد الطبيعية المتاحة له، فإن الثورة الصناعية الحالية كان انفجارها عظيماً في ذهنه، وكان تسخير الآلات فعالاً لتطوير ذكائه ومضاعفة قدرات عقله وتفكيره، حتى أضحى الانفجار المعرفي صاحب الدور الأول في مختلف المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية.

أنواع الاستراتيجية

ليس هذا مجال الخوض في أنواع الاستراتيجية كما تعددت على مر التاريخ والزمن، ولا كما تنوعت حسب أصناف العتاد والعدة، ولا كما تتميز من خلال

أشكال المواجهة والتعبئة، وإنما حسبنا أن نشير إلى وجود نوعين بارزين من الاستراتيجيات، نلخص مضمونهما فيما يلي:

أ ـ استراتيجية الاستقالة: وهي استراتيجية تتخلى فيها الفئات الشعبية بشكل تصاعدي عن كل منافسة للنخبة في مواجهة التقلبات المستمرة داخل المجتمع، أو محاولة السيطرة على زمام حركتها. وهي استراتيجية تزيد من تأزم الوضع القائم، وتنتهي بمزيد من تمركز السلطة والإدارة بيد النخبة، ومزيد من الغرق للمجتمع تحت طوفان المشاكل الناجمة عن الآثار السلبية غير المعالجة للتقلبات، وانحصار اتخاذ القرار وتحديد البدائل في أيدي زمرة منعزلة من الفاعلين وأصحاب القرار.

ب ـ استراتيجية التجنيد: وهي استراتيجية تجند فيها جميع الضمائر الواعية في المجتمع للتمكن من الوصول إلى مستوى حضاري نوعي، وإلى المشاركة الفعلية للفرد في صياغة حياته، والاهتمام ببيئته ومحيطه الاجتماعي، وإسهامه في تقويم ذاته، والتأثير إيجاباً في تطوير مجتمعه وإصلاحه، بشكل يجعل من تقلبات ذلك المجتمع ومخاضه ظاهرة طبيعية توظف لصالح تطوير المجتمع، وليست هوساً يشل فعالياته ويحد من طاقاته.

ومثل هذه الاستراتيجية يمكن لها تطوير الفكر والمنهج والمعرفة بما يسمح لها بالانتقال من مجتمع ذي أغلبية صامتة، إلى مجتمع ذي أغلبية فاعلة، مقدمة على التصريح بما تعانيه، ومناقشة ما تعيشه من مشاكل، ومشاركة في صياغة برامج الإصلاح. أي استراتيجية تسمح بالانتقال من مجتمع سلطة جزافية إلى مجتمع سلطة واعية.

عناصر الاستراتيجية

أ ـ الاستيعاب الواعي للماضي: استيعاب الماضي ووعي حركته التاريخية ضروري لفهم الواقع الحاضر. فمن خلال فهم آليات الواقع الراحل و"ميكانزماته"، والمتابعة الدقيقة لمسارها التاريخي، يمكن إدراك التطورات المختلفة التي خضعت لها الأمة سواء على الصعيد السياسي، أو العسكري، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو

الفكري، أو الثقافي، أو التربوي، ويمكن كشف المورثات التي أسهمت بشكل أساسي في انبثاق الواقع الحالي للأمة.

ودقة المتابعة تحتاج إلى إعمال الوعي في فهم وقائع التاريخ، علما بأن الماضي لا يمكن الولوج إلى أغلبه إلا من خلال النص المكتوب. نعم، يمكن الاستعانة بالآثار المتبقية، والحفريات الأركيولوجية، وبعض النقول الشفوية، ولكن يبقى الباب الواسع لمعرفة صور الماضي وأحداثه هو النص المدون، ولا مناص من توفيره وتحققه.

ولتحقيق ذلك نحتاج إلى ضربين من العمل:

- توفير النصوص المتعلقة بكل فن ومادة، وفهم محيطها الاجتماعي والسياسي والثقافي الممكّن من دراستها واستيعابها، موفاة جميعاً حقها من التوثيق والتحقيق والتكشيف.

- توفير دلالات مصطلحات النصوص، وتقلبات مفاهيمها عبر الزمن، من زمن خروج كل نص للوجود إلى زمن الانكباب على دراسته وتحقيقه.

ويعني ما تقدم أن علينا ما دام النص خطاباً في أساسه أن نوفر للدارس أصنافاً من المعلومات شتى نحصر معظمها فيما يأتي:

- سيرة المخاطب، ومكانته الاجتماعية، ودوره الإصلاحي في المجتمع والأمة، مع مسح شامل لإنتاجه الفكري وعطائه العلمي.

- شكل الخطاب وأنواعه ودلالاته، ومحيطه العلمي والفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي، وقراءاته المختلفة، وشروحه سواء منها المواكبة أو اللاحقة، مع تحديد دائرة معاني ألفاظه ومفاهيم مصطلحاته، بشكل يمكن من الوعي بالمناخ اللغوي والاصطلاحي السائد وقت صدور ذلك الخطاب.

- جو المخاطب ومحيطه، ونعني بذلك العمل على رسم الخريطة الفكرية والثقافية، وضبط المناخ المعرفي وأدواته العلمية والتربوية والدعوية والإعلامية.

- المسار التاريخي للخطاب إلى أن وصل إلينا، وتقلبات النسخ التي خضع لها، والآثار الفكرية أو الأدبية أو الفقهية التي أوجدها.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

وكل نقص في هذا الركام من المعلومات ـ حسب الأصناف الأربعة المذكورة ـ يخل بعملية الاستيعاب الواعي للماضي، خاصة إذا تعلق الأمر بالعوامل الفاعلة والمحركة للتاريخ.

وطبعاً نعني بالخطاب النص النافع الصالح لفهم حركية التاريخ، والمساعد على فقه علل القضايا والتيارات التي أنتجها مخاضه وتقلبه.

ب ـ الاستقراء الشامل للواقع: إن إصلاح الواقع يمر حتماً عبر فهم شكله ومضمونه، وثابته ومتحركه، وحديثه وقديمه، وقويه وضعيفه، والآني منه والمستمر. والعلة في استقراء وقائعه، وتبين تضاريس مختلف خرائطه فكراً وثقافة ومنهجاً، عطاءً وأخذاً، تلك الرغبة في إعمال التغيير فيه، لينتقل به إلى وضع أحسن وأمثل. وهو أمر يحتاج إلى أدوات جمع للمعلومات ضخمة، وأدوات تحليل ونقد قوية ودقيقة، وأصناف من المعطيات والكشوفات والتشجيع على دروب شتى من التخصصات، نذكر منها مثلاً:

- دراسة الإنسان نفساً وسلوكاً، فرداً ومجتمعاً.
- دراسة التيارات الفكرية والمذهبية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية السائدة.
- الدراسة المستفيضة للتاريخ الحديث الذي هو البداية والمقدمة للواقع، وهي تجعله حتماً جزءً منه، وإن كان في الترتيب الزمني سابقاً عليه.
- القيام بالدارسات الميدانية المختلفة في ميادين العلوم الاجتماعية والسلوكية.
- الخوض في تحليل المعلومات عن الواقع القطري والقاري والدولي، وخاصة في المحيط الجغرافي.
- العمل على دراسة تجارب الدول الحديثة التي واجهت الغرب مثل كوريا واليابان وغيرهما، ومعرفة عوامل الضعف والقوة عندها.
- دراسة نشاط المنظمات القطرية أو القارية أو الدولية وتتبعه.

واستقراء الواقع المرغوب في إصلاحه بعيداً عن "تشخيص" القضايا وحصر أسباب انبثاقها في وجود أشخاص، أو تعليل عدم القدرة على مواجهتها بحجة ضرورة التريث وانتظار استكمال العدة، ضرب من الانتحار. فأمة تجلس جلسة المتربص المنتظر، لا

يمكنها إطلاقاً أن تقوم بأي تغيير يذكر. فهي إذاً ما تحركت اجتهدت لتبرر وضعاً قائماً باستحالة رده أو تغييره، وأن ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأن القدر المحتوم سبقها فأحبط ما كانت تنوي القيام به، وأن الوضع اليوم خير مما قد يؤول إليه غداً، وهلم جراً من التعابير المانعة من الاستقراء الشامل، والحائلة دون مواصلة الجمع للمعلومات.

جـ ـ الاستشراف المحكم للمستقبل: ومما ينبغي أن نخلص إليه من العنصرين السابقين إجلاء أوجه الشبه بين الماضي والحاضر، وربط مسار تطور الأول بالآخر، حتى نكون على وعي بالمورثات (الجينات)، وإدراك لمختلف التيارات والتوجهات، وتكهن صور محتملة الشهود للمستقبل، لا نقصد بها ادعاء علم الغيب، ولكن نصبو من خلال تفصيل مشاهدها إلى شحن الحوافز، واستكمال العدة، وإيقاظ الهمم، واستنفار جميع الطاقات المستجمعة، ولقد سبق أن فصلنا الموضوع في بحث لنا مطول قدمناه في ندوة الجزائر حول المستقبل الإسلامي في مايو ١٩٩٠ فليرجع إليه.[٢٢]

الاتجاهات الثقيلة للواقع المعاصر

لن نحاول استقراء جميع الاتجاهات الثقيلة في ورقتنا هذه، فليس هذا موضوع ما نوده ونقصده. ولكن نطمح من الإشارة إلى بعضها تحضيراً ودفعاً إلى مزيد من الاهتمام بتصور الواقع المقبل من خلال الاستيعاب الشامل والواعي للواقع الحالي والواقع الراحل. فهذه الاتجاهات محتمل سيادتها في المستقبل القريب، ويلزم أن نعي حين مراجعة خططنا أن نمهد السبل لإدراك ما يلزم فعله الآن تجاهها وقبل فوات الأوان، من خلال إحكام أهداف الاستراتيجية الفكرية ومجالات عملها، ويكفينا فيما نورده الإشارة إلى خلاصة الدراسات الاستشرافية العالمية الحديثة في بيان الاتجاهات التي نراها محتملة الوقوع في السنوات العشر أو السنوات العشرين القادمة، انطلاقاً من تحليل الماضي القريب ومعطيات الواقع الجاري. وهي تكاد تجمع في معظمها على سيادة الاتجاهات الثمانية الآتية:

---

٢٢ نشر البحث في مجلات عديدة، لكنه نشر كاملاً في مجلة **المستقبل العربي**، (بيروت) عدد ١٤٤، ١٩٩١؛ ثم نشر بشكل موسع مع إضافات، في مجلة **المسلم المعاصر**، (القاهرة) العدد ٦١، محرم ـ ربيع الأول ١٤١٢، أغسطس ـ أكتوبر ١٩٩١م.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

١ـ اشتداد الصراع الفكري والثقافي وسيادتهما في كل الميادين، لأن التحدي الكبير الذي سيواجهه العالم في السنوات القادمة هو تحدٍ فكري وثقافي بالأساس.

٢ـ تضاعف النمو الديموغرافي وتفاقم سكان العالم الذين سيصل عددهم ما بين ٨ إلى ١٠ مليار من السكان سنة ٢٠٢٥. ويتفجر عن هذه الاتجاه أربع مشكلات أساسية:

ـ الإدماج الاجتماعي والمهني للشباب.

ـ الشيخوخة الديموغرافية في البلدان الصناعية.

ـ الهجرات الدولية وما تحدثه من بزوغ مجتمعات متنوعة الثقافة ومتعددة الأعراق.

ـ الحضرية وتطور المدن.

٣ـ صعوبة تحقيق الأمن الغذائي للبشرية، خاصة في دول الجنوب.

٤ـ تفاقم الأمية حيث سيكون واحد من كل أربعة أفراد في العالم أمياًّ، مع التركيز على تلازم الفقر والأمية.

٥ـ دخول العالم الثالث إلى المأزق بفعل تدهور أسعار المواد الأولية وارتفاع المديونية.

٦ـ الأخطار الكونية المتمثلة أساساً في تفاقم الكوارث الطبيعية والتقنية، وتزايد التلوث والصراع، واتساع رقعة التصحر من جراء ارتفاع حرارة المناخ الأرضي.

٧ـ أثر التقنيات الحديثة مثل الإعلاميات، والبيوتكنولوجية، وصناعة المواد والألياف الجديدة، وانعكاس ذلك الأثر على فكر المجتمع وثقافته.

٨ـ بزوغ مجتمع الإعلاميات، وستصاحبه ثلاث قطائع:

ـ القطيعة المتزايدة بين التنمية الاقتصادية واستهلاك مواد الطاقة الأولية وغيرها.

ـ القطيعة بين دائرة تداول النقد والاقتصاد الحقيقي.

ـ القطيعة بين التنمية الاقتصادية وإيجاد فرص الشغل، وذلك بفعل دخول التقنية الحديثة إلى جميع الميادين بدرجة يمكن معها إنتاج المحتاج إليه فوراً وحسب مواصفات طالبه، حيث تصبح المقاولات والمؤسسات ملبية حاجيات شخصية ناقلة الاقتصاد من اقتصاد قطري أو تكتلي إلى اقتصاد كوني.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

وبعض هذه الاتجاهات قد ساد بالفعل خلال الثمانينيات، ولعله يستمر في التسعينيات وما بعدها، وبعضها يظل حاضراً بضعف غير محتمل التطور، ولكن حضوره بشكل من الأشكال الحادة وارد. ويصعب علينا أن نقدر الاتجاهات المتعلقة خاصة بالعالم الإسلامي، ذلك أن هذا العالم لم يخضع ولو مرة واحدة لدراسة شاملة تهتم بتصورات مستقبله بشكل علمي رصين وجاد، يقوم بها فريق متعدد التخصصات من الغيورين على إسلامهم والمحبين لأمتهم، على الرغم من تعدد المحاولات الفرعية في العديد من المجالات كل منها على حدة، لكن دون تنسيق يذكر.

لكن يمكننا تقديم بعض الاتجاهات من خلال ما نستشفه من الواقع، وما نستخلصه من الدراسات المختلفة التي عالجته. فمنها ما هو سنة من سنن الله في الكون، تتمتع بصفة الدوام والاستمرار، ومنها ما نرى بعد تحليل الواقع الحالي أنه في حالة استمرار بواعثها وظروفها ستتضخم لتتولد عنها اتجاهات سائدة أخرى.

هذه الاتجاهات منها ما هو سلبي ومنها ما هو إيجابي، فأما الاتجاهات السلبية فهي:

١ـ اشتداد الصراع من أجل إحكام الطوق على الفرد المسلم والأمة الإسلامية من طرف أعداء الإسلام، وأعداء العدل والحرية.

٢ـ تزايد النمو الديموغرافي وارتفاع سكان المدن واكتظاظها في الضواحي، مع تفاقم حركة الهجرة وتقلص فرص العمل بالداخل والخارج في البلدان التي تعرف نسبا عليا من العاطلين.

٣ـ انهيار القدرة الشرائية للمواطن في العديد من دول العالم الإسلامي، وارتفاع نسب الفقر والأمية، وتكاثر العاطلين، وانتشار البطالة داخل جميع الفئات الشابة.

٤ـ اشتداد الغزو الإعلامي والفكري واللغوي مع تجنيد النخب المستفيدة منه كي تتبنى أصوله وتدافع عن محتواه وتوسع من دائرة خطابه.

٥ـ تضاعف التحديات واشتداد الأزمات في معظم بلدان العالم الإسلامي، مع احتمال اندلاع صراعات إقليمية شاغلة ومكبلة، تحركها جهات عنصرية، أو عرقية، أو طوائف معادية مذهبياً وإيديولوجياً في بعض البلدان الإسلامية.

أما الاتجاهات الإيجابية فهي:

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

١ـ عودة الفرد والمجتمع داخل الأمة الإسلامية إلى الأصول والتراث، وبحث كل منهما عن تأكيد الذات، والفرار من سرطان فقدان الهوية.

٢ـ إلحاح الشعوب الإسلامية على الشورى وتوفير مناخ الحرية وسيادة القانون والعدل.

٣ـ بداية أفول الانبهار بحضارة الغرب، وتنامي الرغبة لدى الشعوب المسلمة في رفع التحدي العلمي والتكنولوجي وتحقيق السبق في هذه الميادين، وتنامي صدور الدراسات العلمية الرصينة، ولو ببطء، بغية الخروج من الأزمة.

٤ـ بلورة الفكر الإسلامي، خاصة في العلوم الاجتماعية، ليكون في مستوى مواجهة التحديات، وانتقال الصحوة من إثبات الوجود إلى صياغة المشروع الحضاري البديل.

٥ـ اشتداد الدعوة للوحدة الإسلامية وانبثاق مؤسسات لصياغة مشروع إنجازها الفعلي والعملي.

هذه الاتجاهات ليس هذا مقام البسط في شرحها، ولكن يتبين لنا من خلال عرضها أن الطوق سيشتد على العالم الإسلامي، وهذا ليس بالأمر الجديد، فقد اشتدت عمليات الغزو والتمزيق والتفرقة منذ ما يقارب قرنين من الزمان أو يزيد، وهي في إحكام للطوق مستمر، وهذا إن كان يشل حركة العالم الإسلامي ويغرقه في دوامة من المشاكل المكبلة أو الجانبية التي لا طائل من ورائها، فإنه يمكن من جهة أخرى من تحفيز الهمم، وتنشيط الجهود، وإحكام العدة لدى الفرد المسلم الغيور للخروج من التبعية والتخلف، وأخذ زمام الركب الحضاري الإنساني المبوأ له.

حاجتنا إلى استراتيجية في مستوى الاتجاهات والتقلبات

وإني إذ أخوض في توشيح الفكر الاستراتيجي وتحديد مفهوم الاستراتيجية والمراد منها، فلرغبتي في أن نعمل جميعاً على إزالة الغموض في العلاقة بين التخطيط والاستراتيجية. فالقارئ المتبصر لما دُوِّن حول التخطيط الثقافي من خبراء الثقافة، وما وجه لتدوينهم ودراستهم من نقد، يلمس الخلط عند بعضهم بين الخطة والاستراتيجية. وأطمع في أن يسهم هذا البحث مع بحوث أخرى أدق وأخص في تحرير الخطوط العريضة لاستراتيجية فكرية وثقافية متينة، تأخذ مأخذ الجد حدة

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

التقلبات وقوة الاهتزازات في عالم الأفكار والمعارف المعاصر، وتساعد على بلورة خطط الجهات والأقطار حسب المتاح من الإمكانات والمتوافر من المواد والوسائل.

وليس هناك كبير اعتراض على ما حلله عديد من الخبراء في توضيح جوانب عديدة من الثقافة والسياسة الثقافية، فكله يصب في توضيح المفهوم والفكرة، ولكني أرى أن ننكب على إعداد "استراتيجية" محكمة تمكننا من التنفيذ الثابت والمتطور. وهذا يقتضي في رأينا البدء في تحسيس أنفسنا بأهمية الفكر الاستراتيجي، كما نرى ضرورة تعميق فهمنا لهذا الفكر وتطوره التاريخي، وكيفية الاستفادة منه ليكون خادماً للفكر الإسلامي، بل جزءً فاعلاً في منظومته.

والاستراتيجية حين توضع لا تعني حتمية النصر، وهي حين تصاغ من أطراف لا تعني تحقيق النصر في عهدهم ولا على أيديهم. وهي حين تعد لا تعني أنها لا تقبل المراجعة ولا التعديل، بل قد تحصل الهزيمة، وتصبح الاستراتيجية ضرورية في فصولها التي صيغت على مشهد احتمال الهزيمة حتى يمكن الاستفادة من فشل البنود الأولى للاستراتيجية المعتمدة، والتي تسربت من خلال عدم تحقيقها الهزيمة، فتراجع في ضوئها مختلف الثغرات، وتشحن النفوس لمواصلة الجهد. لأن الغاية ليست استعجال النصر، ولكن تبليغ الرسالة وتوصيل الخطاب.

ونحن نحتاج في ذلك إلى أمور أهمها:

- الوعي الجماعي بأهمية خوض الصراع ضد العدو الواحد بمختلف ترساناته.
- الإيمان بقاعدة استراتيجية واضحة: لن تستطيع أن تكسب الحرب بمفردك ولا أن تشهد حتماً تحقيق النصر في عهدك.

وهذا يعني أموراً ثلاثة لا بد أن يكون الوعي الجماعي بضرورتها حاصلاً:

١- العمل مع الجماعة، وتكوينها والحرص عليها، مع إيجاد عوامل استمرار وحدة صفها واتساع رقعتها.

٢- استشراف المستقبل، والحرص على أن يكون المنجز من العمل غير رجعي ولا تستطاع إزالته إلا بشق الأنفس.

٣- إيجاد الجيل الخلف الصالح الذي سيتولى البناء على القواعد المذكورة نفسها.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

الحاجة إلى تشجيع الدراسات الاستراتيجية

لقد أضحى مألوفاً عند رجال القرار والسلطة والاقتصاد أن نرى مجموعة من الخبراء منكبين على دراسة موضوع أو ظاهرة معينة لصالح منظومة أو مؤسسة تعنى بتلك الظاهرة. لكن هذه الألفة منعدمة أو شبه منعدمة عند رجال الحركة والدعوة والثقافة. فما زال المثقف والداعية والحركي يرى أنه لا داعي لكثرة الحديث حول موضوع يكفي فيه حسن الاعتقاد والإقبال على العمل. وإذا كان حسن الاعتقاد والإقبال على العمل ضرورياً للمؤمن فإنه غير كافٍ لمعرفة بواعث الظاهرة موضوع الدرس وأسبابها ونتائجها وأشكال تطورها. ولهذا تجد العديد منهم في غير مستطاعه تقديم مشروع يخدم قضيته بشكل مستقيم، ولا يرى ضرورة في تقديم أوراق لا فائدة منها حسب رأيه، ناعتاً إياها بالبيروقراطية التي شلت أمور الدعوة. بل قد يغضب حين تطالبه بإثبات ما يلزمه لمشروعه، مردداً أنه ما أقدم على اقتراح المشروع إلا طمعاً في رحمة الله وإخلاصاً له، وأنه لا يقصد أي استفادة مادية لنفسه. والغضب نفسه تلمحه منه بشكل أو بآخر لو طلبت منه معلومات تتعلق باسمه وسنه ودراسته وتاريخ حياته الثقافية أو الحركية أو الدعوية، معلناً أن طلب ذلك تفاهة لا يهتم بها إلا المخبرون.

فإذا نحن استطعنا أن ندخل الحاجة إلى الخبير عند مختلف العاملين في الحقوق الثقافية والفكرية والدعوية، وتمكنا من إقناعهم بضرورة الجرد الشامل لمختلف البواعث والأسباب لأي ظاهرة من الظواهر أو مشكلة تعترضهم، وحمسناهم للنظر الثاقب لمختلف المآلات المحتلمة لتطور تلك الظاهرة أو المشكلة، نكون قد حققنا تقدماً ملموساً في إيجاد جو مساعد على إحداث مؤسسات تهتم بالدراسات الاستراتيجية والمستقبلية، وأسهمنا في توفير الوسائل المساعدة لفهم خطاب إصلاح مناهج الفكر وتبليغه.

خاتمة

لقد رأينا أن فن الاستراتيجية يفضي حين تطبيقه أولاً إلى فن التعبئة. والتعبئة تتم حسب المقاصد، واحتمال صعوبات الطريق ومنعرجاته للوصول إلى تلك المقاصد، مما يحتم التزود والإعداد: التزود بالتقوى أولاً، ثم بما يلزم من العلم والدراية، مع مصاحبة

عمليات التدبر والتبصر والتذكر في مختلف المجالات والفنون حركة وموضوعاً. والإعداد مرادف للتزود، لكن يزيد عليه تصور حجم الخسارة لو لم يكن الزاد كافياً، مع الحرص على بذل الجهد إلى أن تنتهي دائرة المستطاع.

وعلينا أن نعبئ أنفسنا زاداً واستعداداً لأمور تلوح قادمة. ولسنا نتنبأ بها كما يفعل الضاربون على الحظ أو قارئات الفنجان، ولكن هناك على سبيل المثال لا الحصر ثلاثة أخطار تلوح في الأفق لها ما يقنع من شروط التوقع للوقوع في المستقبل:

- **الأول:** نجاح مشروع تعميم تهويد المعرفة وصهينة العالم، وهو مشروع بدأ في الظهور منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وتجسدت معالمه الحالية في مشروع إسرائيل الكبرى الذي يسعى أصحابه لكي تكون إسرائيل هذه هي قلب العالم معرفياً وعلمياً وتقانياً وروحياً، بحيث يستحيل على أية جماعة بشرية ترغب في العيش الاستغناء عنها، فضلاً عن أن تكون نداً لها، أو تجازف بأن تكون لها خصماً.

- **الثاني:** قوة الصين البشرية والتنظيمية وقوة اليابان العلمية والتقنية.

- **الثالث:** تنامي الفكر الغربي المتطرف ورجوعه إلى أصوله الهمجية بعد أن بدأ يفقد بفعل الأزمات السياسية والاقتصادية بريقة الليبرالي الجاذب.

والإعداد لهذه الأخطار على الصعيد الفكري يقتضي ترصد أحوالها وتطورها بشكل يمكّن المفكر من استخلاص المشاهد المحتملة، ويجنبه صدمة المفاجأة في حالة البزوغ والظهور. كما أنه يتطلب الحزم باستراتيجية تسمح حين الحاجة باستنفار الطاقات تأهباً في ضوء دائرة المستطاع.

وفي إطار الترقب نفسه علينا ألاّ ننسى أن شيئين أساسيين حركا ويحركان أصحاب مشروع الهيمنة والصهينة: الخوف والطمع. فالخوف من الاتحاد السوفييتي أملى عليهم العديد من القرارات والمواقف من الجانب الاستراتيجي، والطمع في خيرات البلدان المسماة بالفقيرة على الرغم من غنى بعضها أملى عليهم ورغب لديهم استعمار تلك الدول. كما أن الخوف من الإسلام، والطمع في خيراته، أملى ويملي عليهم مواقف متعددة مازالت تترى على مسرح واقعنا.

ولهذا ومن أجله عمل هؤلاء أساساً على كسب القوة، قوة المنهج حيناً وقوة الحجة حيناً وقوة الذراع أحياناً، حتى يتحقق في قلوبنا الوهن من جهة، ونؤمن

بعظمتهم ونسلم بها من جهة أخرى. وإعداد القوة ضروري، والقوة الفكرية إن كانت ضرورية فهي غير كافية. لكن المنهاج لإعداد هذه القوة يبدأ من الفكر، لأن استقراء الواقع واستنباط عبر التاريخ واستشراف المستقبل وترجيح احتمالاته أمر أساسه الفكر وقوامه المعرفة.

ولعل أول قوة يلزم أن نعمل على توفيرها في ظروف انهزامنا هذه قوة المعلومات والمعارف، من إخراج النصوص، والقيام بالتشريح المتعدد الأوجه للواقع المعيش، والدراسة المتبصرة للتاريخ القريب، والحامل للجينات التي فجرت هذا الواقع. ثم استشراف الواقع المقبل على ضوء تطور ميزان القوى بين الحق الذي نحمله والباطل الذي يحول بيننا وبين توسيع رقعته والقيام بتبليغه.

وأظن أن المناخ الفكري، ونسيج الإمكانات السياسية والمادية والنفسية والاقتصادية، يختلف من بلد إلى بلد، ومن مذهب إلى مذهب، ومن نظام قيم إلى آخر. فإننا بقدر ما نلمس تدهور نظام القيم عندنا، وتخلف الأجهزة الإدارية لدينا، نلمس تقدم الغرب بخطوات جسام. فالحكومات الغربية أصبحت تعلن صراحة خوفها من الإسلام، وبالتالي عداءها له، وتشجع علينا كل متربص به، أو كاتب حقود على شريعته، مشوه لأفكاره. والمسيحية تنادي جهارا بتوفير أماكن العبادة للمقيمين من المسيحيين بالخليج، وهي قد حققت جزءً من ذلك حديثا في معظم دول الخليج، ولكنها تقصد مكة والمدينة وجوارهما، ولا تقصد تمكين أفرادها من العبادة على طقوسها، ولكن تمكين رجالها من نشر أفكارها وتوجهاتها في أرض ترى أنها سلبت منها.

وإني لا أرى أن الله مكتف سبحانه بسؤالنا عن ضياع الأندلس وفلسطين وعديد من دول آسيا وإفريقيا، وانهيار دولة الإسلام بالتحامل على العثمانيين، ولكني أراه جلت قدرته يسائلنا عن أكثر من ذلك: أين كنتم يوم هب ومن هب على الأمريكتين؟ أين كنتم حين قتلت شعوب بأطفالها ونسائها وشيوخها وشبابها، وأبيدت حضارات بعالمها، ومسخت حضارات أقوام تركوا للجوع والعطش، محرومين من أبسط الحقوق، مسلوبين من التمتع بأراضيهم، مبعدين حتى عن التقاط فتات خيراتها؟ كيف تركتم هذه البلاد لغيركم كي يهلكوا الحرث والنسل؟ وكيف غفلتم عن مهمتكم في نشر الدعوة وإحقاق الحق ونصرة المظلوم؟

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net الحصري والجديد

أقول هذا وقد احتفل العالم بذكرى اكتشاف الأمريكتين، فقد مضت إلى اليوم خمسة قرون على تاريخ ابتداء هذه الإبادة الجماعية لأجناس وشعوب كان محتملاً أن تكون ناعمة في ظلال الإسلام، لو تحركت همم قوم نائمين، وهم عن الإعداد الاستراتيجي غافون، وعن لوازم الدعوة ساهون.

وكلي أمل أن نستيقظ لنصوغ استراتيجية محكمة البنود، مدققة العناصر. فقد نفوق غيرنا لو كنا جادين في الإعداد الاستراتيجي بأمرين:

- أننا نرجو من الله ما لا يرجوه غيرنا، وأساس الرجاء الدعاء. وكم يبخل المسلمون بالدعاء لأنفسهم ولصالح أمتهم. فقول ربنا جل علاه ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾ (سورة الفرقان:٧٧)، دال على أننا مهما أبدعنا في المجال الاستراتيجي، فحظنا هزيل بدون دعاء، ولن يحالفنا النصر بغيابه بنص القرآن.

- أننا نعتقد في الله ما لا يعتقده غيرنا، ونرى أن العدد والعدة أسباب، إذا لم يكن وراءها جنود الخفاء من الرحمن لا حظ لها من النصر، ولا نسبة لها في الفوز.

وسنظل نكرر ما قلناه حول الثقافة ما دام جزء كبير من الأمة لا يعي أن العلم جزء منها، ولا يستسيغ أن السياسة لون من ألوانها، ولا يقبل أن الحرب هجوم ثقافة غالبة على ثقافة مندحرة، وأن العوامل الاقتصادية والاجتماعية ليست إلا عوامل فاعلة على ترسيخ الوعي بالفكر الاستراتيجي حتى نعي دوافع الصراع الثقافي وبواعثه، ونكون على أهبة نخوض الحرب الثقافية كسباً ونصراً لا مجازفة ومخاطرة، ونعي أننا مهما تشدقنا بألفاظ السلام، فإن معاول الحرب لا ترحمنا حتى نقبل بسيادة ثقافة غير ثقافتنا، ثقافة صاحب القوة العسكرية، ولن ترضى عنا أساطينه ولا أساطيله حتى ننضوي جنوداً في المراتب الدنيا في صفوف قواته الفكرية والثقافية والعسكرية الغازية لنا والناهشة لأجسامنا وذواتنا.

فما زلنا نجد لذة شهوة في فهم ما يبسط على مائدة الغرب الفكرية من ألوان المقولات، وما زلنا نتفنن في تنميق ما عليها من حديث الأدوات في شكل مصطلحات ومفردات، دون أن تكون لدينا تلك الرغبة في الصوم أياماً نستفيد منها من الاطلاع على فنون إعداد مائدتنا الفكرية الخاصة المستفيدة من الغرب بالتحدي لكبريائه واستعلائه، لا بالاستسلام لجاذبيته والتصديق بعالميته، ولا بنكران وجوده أو العمى عن زخم عطاءاته.

فلئن استمر الأمر بنا على تلك الشاكلة الكئيبة التي وصفنا، فنحن في تخلف دائم إلى ما شاء الله، حسبنا الجهد في جمع فتات ما يفضل من طعام فكري على موائد الغرب، والوقوف صفوفاً ننتظر أن يمن فندعى لولائمه. ولئن عزمنا وتوكلنا على الله في بذل الجهد لتحقيق ذاتيتنا واستقلالنا الفكري من خلال تحدٍ دائم وحوار متصل متوازيين متفاعلين يغذي كل منهما الآخر، فلعلنا حينذاك نكون قد بدأنا في خوض الجانب التطبيقي من الفكر الاستراتيجي، ولنا أن نبشر أنفسنا وقتئذ بأن مرحلة التعبئة قد نضجت، لتفسح المجال لمرحلة المواجهة، فإن كانت نصراً فمرحلة مراجعة لدوامه واستمراره، وإن كانت كرة فمرحلة مراجعة لإعادة التعبئة وتحقيق أسباب النصر.

فلكم نترقب أن نلفظ يوماً بمثل ما يلفظ به اليابان اليوم حيث يقول بأن مرحلة اللحاق بالغرب بالنسبة له قد ولت، وأنه دخل مرحلة السباق أشواطاً بعيدة عن كوكبة الغرب، ووجد نفسه في حل من كل ضغط في أن ينعت رجالات أمريكا بالكسالى، وأن يصف رجال الغرب بالعاجزين في مجال التقدم العلمي والإبداع الصناعي.

ذلك، ولب الأمر هو النظر بدقة إلى ما يترقب من الأزمان، مع ما يصاحبه من إعداد العدة وإحكام التزود، وخير الزاد التقوى. فمن سعى لكي يكون غده أفضل، فنعم الساعي ونعم السعي، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٢١)؛ ومن كان في ترقبه وإعداده أعمى، فهو في مستقبله ﴿أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٢).